دار النحاس

روايات عبير

1018

Harlequin

الحب المستحيل

بني جوردن

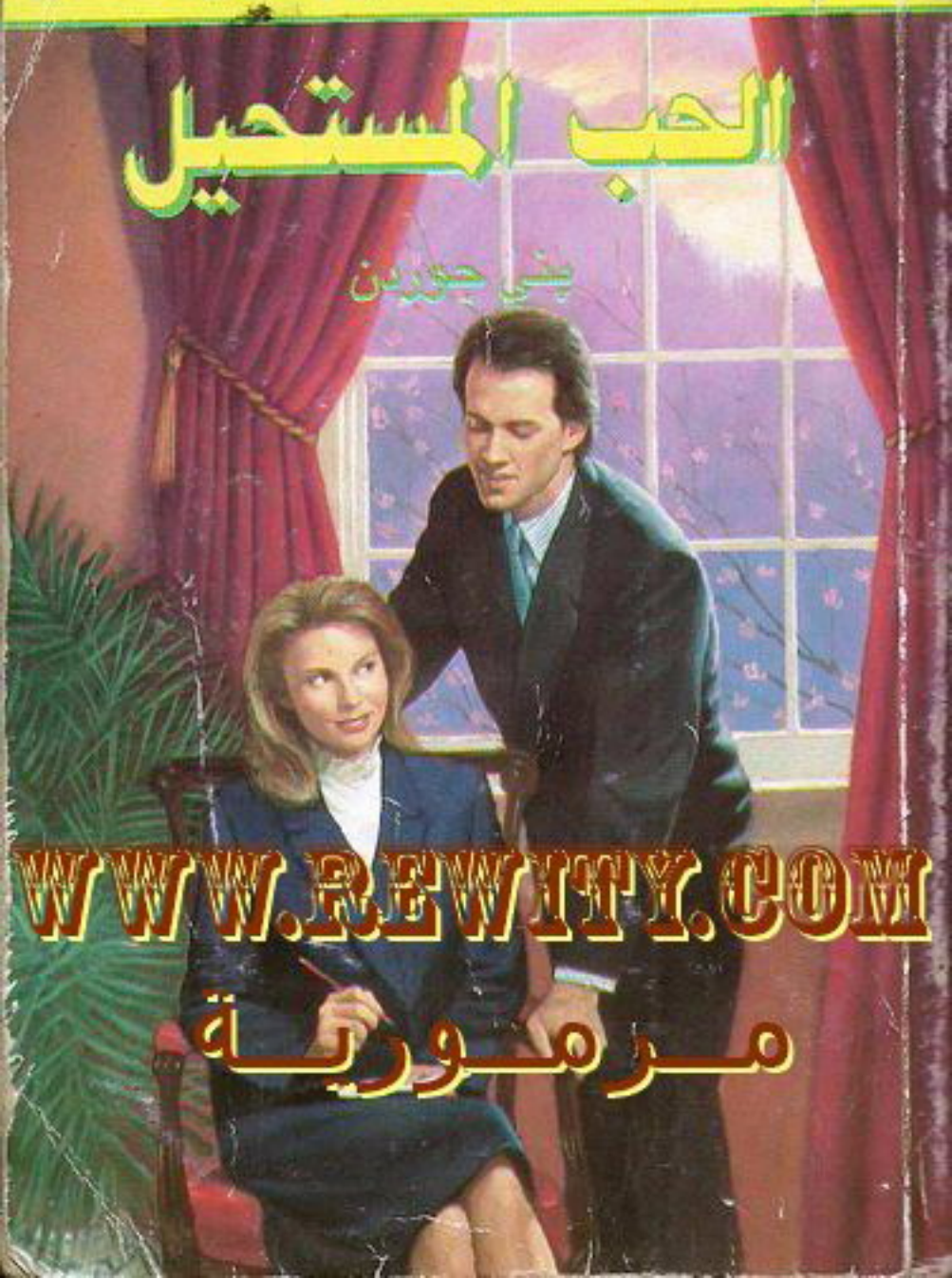

WWW.REWITY.COM
مرمورية

روايات عبير

الحب المستحيل

هل اعتبرت، خطأ، أن تصرفه كان بدافع اللطف؟

وجب على هيزل مواجهة الحقيقة بشأن سيلاس جاردين. كان يتودد إليها لأنها والدة كاتي فقط. وكاتي... وليس هيزل... هي التي تهمه.

ولكن ذلك لم يسهل عليها الأمر عندما وجدت نفسها في حضرته. كان سيلاس رجلاً جذاباً، وبرغم أنها نسيت منذ وقت طويل كل ما يتعلق بالرجال، كان قلبها يخفق بسرعة كلما رأته.

من المحتمل أن سيلاس جاردين لم يقع في حب هيزل، ولكن هل هي وقعت في حبه...

«أنت تشعرين بالبرد، ربما يجب علينا العودة.»

العودة... لو فقط تستطيع هيزل أن تعود إلى ما كانت عليه، قبل أن تقابل سيلاس.

لقد عرفته منذ أربعة وعشرين ساعة. ومع ذلك غيرت هذه الساعات حياتها إلى غير رجعة. غيرتها، وأظهرت لها مكنونات نفسها الخفية، وعواطفها الدفينة، التي لم تكن تعلم بوجودها.

لو عرفت أكثر عنه، قبل أن تقابله. لو كان لديها الوقت كي تحضر نفسها... ولكنها ادركت أن ليس بامكانها أن تقوم بأي شيء كي تحمي نفسها من العدو الذي يعيش بداخلها

بني جوردن

كانت بني جوردن تواجه المتاعب في المدرسة باستمرار، لأنها لم تستطع الاقلاع عن احلام اليقظة... خاصة خلال حصة اللغة الفرنسية. كانت في صباها قارئة نهمة للروايات العاطفية، برغم أنه لم يخطر ببالها أن تؤلف قصة حتى وقت لاحق. «انتهت محاولاتي الأولى، إلى الفشل.» قالت وهي تسترجع ذكرياتها: «ولكني تابعت حتى انهيت مخطوطتي الأولى.» تشجعت وأرسلتها إلى ناشر، وكانت مقتنعة، إن رواياتها سترفض. ولكن لم يحدث ذلك، وباقي القصة اصبحت تاريخاً!اباني متزوجة وتقيم في تشيشاير.

قصة بني جوردن الناجحة، *لعبة القوة*، ارتقت بسرعة لائحة أكثر الكتب رواجاً، في صحيفة *نيويورك تايمس*. وتبع هذا النجاح، اصدار كتاب *سيلفر*، ويروي عن الطموح وتصارع العواطف، وكتاب *السنوات الدفينة* ويروي عن كل الاحتمالات التي تواجهها النساء في سعيهن للحب.

١٠١٨

روايات عبير

Riwayat Abir 1018

الحب المستحيل

بني جوردن

مؤسسة النحاس
لتوزيع الصحف و المطبوعات
بيروت - لبنان

www.rewity.com

الفصل الأول

حملقت هيزل بتوتر إلى ساعة الحائط. يجب أن يصلا خلال نصف ساعة تقريباً. حوالى نصف الساعة ويصلان معاً. امرأة جميلة بشعرها الأسود الداكن، لم تتجاوز السادسة والثلاثين من عمرها، تحاول جاهدة أن تخفي انزعاجها حين تسمع الآخرين يطلقون عليها ذات الجسم الصغير ويستطردون أنها تبدو أصغر بكثير من أعوامها الستة والثلاثين، من دون أن يضيفوا أنها أماً لفتاة كادت تبلغ عامها التاسع عشر.

إلا أنها فعلاً كذلك، تزخر بالشباب. وكأم لتلك الفاتنة الذكية ابنة التسعة عشر ربيعاً، كانت قلقة حول الترتيبات التي أعدتها لاستقبال كاتي، في أول زيارة لها منذ رحيلها إلى الجامعة في نهاية الصيف الماضي.

حاولت جاهدة أن تلتقط أنفاسها، وتهدىء أعصابها، وأن تقنع نفسها بأن ليس هناك ما يدعو إلى القلق. إلا أن تذكرها لمكالمة كاتي الهاتفية قبل ثلاثة أيام أشعلت توترها من جديد، حيث أعلمتها بأنها لن تحضر بمفردها لتمضية عطلة نهاية الأسبوع بل سيرافقها صديق لها. لقد تعودت هيزل على تصرفات ابنتها، ولم يخفها ميلها لإقامة الصداقات والاختلاط بالآخرين، إلا أن ما لم تكن تتوقعه هيزل أو تألفه من ابنتها أن تتابع تلك الأخيرة بحماس شديد: «إني أعلم أنك سوف تحبين سيلاس، يا أمي. إنه رجل مميز جداً، وإني أنتظر بشوق اللحظة، التي ستلتقيان فيها.»

تسارعت دقات قلبها بعد انتهاء كاتي من حديثها، ومع أنها

استطاعت أن تخفي توترها وانفعالها عن ابنتها إلا أن شعوراً جارفاً بالخوف كان قد غمرها.

صحيح أن كاتي عقدت الكثير من الصداقات في السابق. بعضها مع المشاكسين منهم والمشاغبين... منهم من كان خجولاً وصبيانياً... إلا أن هذه المرة تختلف. شعرت هيزل بشكل غريزي وكأن أحداً ينذرها بسوءٍ ما، ان ابنتها يتهددها خطرٌ ما.

لقد شعرت من الطريقة التي لفظت بها كاتي اسم سيلاس أنه يعني لها الكثير. إنه مهم عندها... مهم جداً... شعرت برعشة خفيفة وهي تنظر بعبوس إلى غرفة الجلوس.

لم تستطع قط أن تفهم أولئك النساء اللواتي يدّعين أنهن وبناتهن المراهقات من أفضل الصديقات. لقد عانت هيزل كثيراً في حياتها الماضية مما زاد في خشيتها من عواقب الحياة ومصاعبها. والمسؤولية التي رزحت تحت حملها باكراً، عجزت عن دفعها بالادلاء بمثل هذا الاعتراف.

تمنت لو لم تكن تلك الأم الاستحواذية. طيلة فترة رعايتها لكاتي كانت تحاول جاهدة أن تلغي المسافة بينها وبين زميلاتها. كانت تحاول دائماً أن تجنبها الوحدة والعزلة التي قاست هي منهما في طفولتها.

المشكلة، أن كاتي بدت غريبة جداً في حديثها عن سيلاس جاردن، وهي لم تشأ أن تسألها عنه بشكل مباشر. كل ما عرفته عنه هو أن كاتي التقت به في الجامعة وأنها كانت متأكدة من أنه وأمها سيتفقان. بدا لها هذا غريباً جداً. وراء لا مبالاة كاتي وثرثراتها يقبع سر خفي.

عادت هيزل تدقق من جديد في غرفة الجلوس وهي تعض شفتها العليا بتوتر.

قرب الموقد حيث اشتعلت نار دافئة، وضعت هيزل سلة تجمعت فيها أكوام من الحطب، أحضرها طوم رولتر من المزرعة المجاورة. ذلك الرجل الذي لطالما دعته كاتي بصديق أمها الريفي، فقط لمضايقتها وازعاجها.

صحيح أن هيزل كانت من فترة لأخرى تخرج برفقة طوم للعشاء أو لحضور حفلة موسيقية. فهو أرمل له ولدان فتيان، وهي أيضاً... أم لشابة يانعة، وكان من الطبيعي أن تجمعهما بعض الأشياء المشتركة.

لكن علاقتهما لم تتجاوز ذلك الحد. لحسن حظها كان طوم رجلاً لائقاً، مهذباً، بعيداً عن أن يفرض عليها مطالب معينة لطالما أرعبتها وألقت الخوف في نفسها.

لذا كانت صدمتها عنيفة منذ ثلاث سنوات، حين طلبت منها كاتي وببرودة شديدة، أن تكف عن التصرف وكأنها يجب أن تحتقر وتعاقب لكونها أنجبت طفلاً غير شرعي، بل بخلاف ذلك، يجب عليها من الآن فصاعداً أن تبدأ بالشعور بالفخر لما قدمته لهذا الطفل.

«أمي، في كل مرة ينظر إليك رجل ما تحمرين خجلاً بصورة فاضحة. أنت امرأة جذابة جداً. هذا ما يؤكده الجميع، وأنا طبعاً لن أمانع إذا قررت الزواج مرة ثانية، شريطة أن تختاري زوجاً، أوافق عليه أنا.»

«حسناً، لمعلوماتك الشخصية، ليس عندي أي نية للزواج مرة ثانية.» قالت هيزل باصرار.

أجابت كاتي بحدة: «لم لا؟ يجب أن تفكري جدياً بهذا الموضوع.» ثم أضافت بتهكم: «فقط أنظري إلى نفسك. منذ أن وعيت على هذه الدنيا ولم يكن هناك أحد سواي وسواك وطبعاً

جدي. أعرف أنه مريع لك جداً أن تفقدي أبي في مثل ذلك الحادث المؤلم ثم تكتفين بأنك حامل بي. لكني لا أستطيع أن أتصور أنه فقط وبسبب ذلك عليك أن تمضي بقية حياتك تختبئين من الرجال. فأنت لا يمكنك أن تصبحي حاملاً فقط بمجرد النظر إليهم، أنت تعلمين.» ثم تابعت بقسوة: «إنك تعلمين أنه لن يكون باستطاعتك تمضية بقية حياتك وحيدة. حتى جدي قد رحل...»

تمتمت هيزل بجفاف: «معك حق. لكن إذا كنت قلقة من أن تعيشي في كنف أهل ينتقدون تصرفاتك واسلوب حياتك فاني أؤكد لك، بانك لست بحاجة لأن تفعلي.»

انفجرت كاتي ضاحكة تاركة الموضوع معلقاً في الهواء. إلا انها كانت تعود إليه في فترات متلاحقة، من وقت إلى آخر، كلما كانت تشعر باقتراب موعد بدء جامعتها ورحيلها عن المنزل.

كررت كاتي أكثر من مرة: «أنت شابة جداً. والرجال دائماً يعجبون بك، إني أرى نظراتهم إليك، إنما أنت... حسناً، إنك تتصرفين وكأنك... عذراء خجولة.»

توردت هيزل، وعندما حاولت أن تعترض عبست كاتي وأضافت: «أنظري إلى نفسك الآن وفوراً بالمرآة، تعرفين ملبم أعني، أي شخص قد يعتقد أنه ليس لك أي خبرة مع الرجال، سابقاً، وكأنك... راهبة أمضت حياتها قابعة في دير.»

«كاتي.» صرخت هيزل بصوت قاطع. للوهلة الأولى هدّأ إسكاتها لكاتي من غليانها، ولكن لاحقاً، وهي وحيدة في غرفتها تحملق من خلال النافذة بالجهة المقابلة من بلدة تشاير الصغيرة، التي طالما ألهمتها في عملها كمصورة لقصص الأطفال، كانت مجبرة على أن تعترف بأن كاتي على صواب. فهي وبشكل لا إرادي ترتبك أمام أي رجل لم تقابله سابقاً،

لطالما كانت خجولة ومنكمشة على ذاتها، بخلاف كاتي التي، وحمداً لله، تتمتع بشخصية قوية وثقة ذاتية عالية.

أما بالنسبة لتجاربها. تذكرت حديثها الأخير مع ابنتها، فتنهدت بتوتر، وبطريقة لا واعية ألقت بالوسادة الجميلة، التي عملت على تطريزها الشتاء الماضي، على الغطاء القديم الذي غلف مقعد أبيها المفضل.

لغاية الآن، وحتى بعد مرور خمسة أعوام على وفاته، مازالت عاجزة عن النظر إلى هذا المقعد ورؤيته خالياً.

الجلطة التي أصابت أباها وأقعدته بعد أربع سنوات من انتقالهم شمالاً إلى لندن، أجبرتها على الاهتمام به ومراقبته بشكل متواصل، ولم يكن عملها هذا إلا محاولة منها لترد ولو جزءاً بسيطاً مما فعله لها ولابنتها.

فقد وجد نفسه وهو رجل في الثانية والأربعين من عمره، مسؤولاً عن تربية ابنة لم تتجاوز الأربعة أيام. زوجته، أي أمها، ماتت على أثر مضاعفات في الولادة، أخبرها يوماً والدها بذلك بأسى شديد، وأنه لم يكن لا هو ولا أمها يتوقعان أن ينجبا ولداً يوماً ما. لذا كانت ولادتها بمثابة الصدمة لها.

إلا أن والدها أحبها وفعل ما بوسعه في سبيل اسعادها، ومع أن عمله كمحام كان يتطلب الكثير من وقته، إلا أنه كان حريصاً على تمضية عطلات الأسبوع معها، كما كان حريصاً على إيجاد مدبرة منزل لتهتم بها وبالمنزل ذي الطراز الفيكتوري القديم حيث نشأت.

عاشت حياة هادئة جداً في بيت دافىء ومحافظ، إلا أنها كانت دائماً فريسة الوحدة والملل، وحتى أثناء ترددها إلى تلك المدرسة الصغيرة الخاصة للبنات، لم تكن تسنح لها الفرصة أبداً لاقامة الصداقات أو الاختلاط مع فتيات في مثل سنها لانتشالها

من عزلتها، فقد كانت السيدة ميروز تأتي يومياً لاصطحابها إلى المنزل.

التقت بجيمي وما كادت تبلغ السادسة عشرة من عمرها.

كان يتردد إلى مدرسة قريبة من مدرستها. ولكنها مخصصة للصبيان، وفي احدى المرات كاد أن يصدمها بدراجته ومنذ ذلك الحين أبصرت صداقتهما النور.

بقدر ما كان جيمي شاباً جسوراً لامعاً بقدر ما كانت هيزل خجولة جداً ومنطوية على ذاتها. ومما لا شك فيه انها قد أخذت منه في ما بعد، ذلك الجانب المرح الموجود في شخصيتها الآن.

أحبته هيزل بجنون، تعلقت به إلى حد الجنون وبالتالي كانت توافقه بشكل أعمى على كل اقتراحاته وتصرفاته.

لم يكن جيمي ذلك الشاب الوقح أو القاسي بل كان يبعد كل البعد عن هذه السمات، إلا أنه كان يتمتع بالحزم والشدة اللذين افتقرت إليهما هي. كان فتياً جداً كي يتبصر بالمخاطر والصعوبات أو المفاجآت التي كان يخبئها لهما القدر.

إنها تعود الآن بذاكرتها إلى الوراء. كان من الصعب عليها جداً أن تتفهم كيف أنها وبعمر السادسة عشرة وقعت في غرام جيمي إلى هذا الحد. لقد اعتقدت أنها وجدت في جيمي مخرجاً من وحدتها القاتلة التي تعيشها. كان جيمي بالنسبة لها الصديق، والأخ، وحتى الأم، التي لم تنعم هيزل أبداً بحنانها.

كان جيمي يعرف كل شيء وكل الأشخاص... لقد علّمها أموراً كثيرة كانت تجهلها. نبهها إلى حقائق الحياة العديدة، شجعها على أن تستفيد من انشغال والدها المتواصل لتقابله سراً كل مساء... وتمضي معه ساعات طوالاً في غرفته الصغيرة داخل البيت الذي تقاسمه مع أهله وإخوته وإخوانه.

عائلة غارنرز كانت عائلة كبيرة وعادية جداً. آني غارنرز، والدة جيمي كانت تعمل كممثلة. أما والده، طوني غارنرز، فكان مديراً لإحدى الشركات وكانا نادراً ما يلتقيان أو يتواجدان في البيت، أما أولادهما الخمسة فقد تركت تربيتهم، تحت رحمة جليسات الأطفال المهملات والأقرباء الزائرين.

آني غارنرز لطالما قابلتها بالابتسام عندما كانت تراها في منزلهم، لكنها كانت دائمة الانشغال حتى أن هيزل كانت تشك في أنها تعرف اسمها. فهي لم تكن تلك الأم التي تهتم وتدقق بعلاقات وصداقات أولادها. أما بالنسبة لهيزل فما كان يعنيها فقط هو أنها كانت في ترددها إلى منزلهم، مقبولة في ما بينهم ومرحب بها. أما محاولتها في انتقاد طريقة آني غارنرز في تربية أولادها، فهذا ليس من شأنها.

لقد كانت هيزل إلى حد ما ساذجة، غبية، لكنها مع ذلك كانت تدرك وتعي المخاطر التي تجتازها وتخضع لها في علاقتها مع جيمي.

لقد كانت صدمتها عنيفة عندما لمسها جيمي وعانقها للمرة الأولى، ابتعدت عنه وكأن تياراً كهربائياً لامسها. لم تكن معتادة على ذلك النوع من المداعبات. والدها لم يكن من ذلك النوع من الرجال، كما أن السيدة ميروز كانت من السيدات المتحفظات التي طالما انتقدت الفتيات وتصرفاتهن.

لذا ابتعدت فوراً عن جيمي، وبسرعة تركها وأخذ يراقبها بفضول وبعينين ضاحكتين، كان يكبرها فقط بسنة واحدة ولكن إذا كانت السنين تقاس بالخبرات فقد كان يكبرها بعشرين سنة.

سألها بحنان: «ما بك؟ ألا تحبين أن أعانقك؟»

هزت رأسها نفياً.

قال لها بصوت رجولي: «هذا لأنك لا تعرفين كيف تسير الأمور. قريباً سوف تعتادين على ذلك.»

بسرعة كبيرة اعتادت على ذلك. وأحبت ذلك الشعور لذي كانت تولده ملامسته لها وقربه منها. أعجبها أن تكون بين ذراعيه وأن يكون لها شخص خاص، لها وحدها يحبها ويفكر بها ويعاملها بما عجز والدها أو السيدة ميروز على معاملتها.

في الواقع، أصبح جيمي شيئاً هاماً في حياتها، ضرورياً... لقد ملأ الفراغ الذي طالما عانت منه، لقد خلق فيها شعوراً بالفرح، جعلها تقدر ذاتها وتعي فرديتها. كل ذلك جعلها عاجزة عن رفض أي اقتراح أو طلب قد يطلبه منها حتى ولو كان ذلك الطلب الذي كان من الضروري أن ترفضه.

لكنه كان حنوناً جداً ومغرياً جداً. ومع أنها شعرت بعد ذلك باحراج شديد، خجلت من نفسها وندمت على دخولها في هذه التجربة. ثم مالبث أن رافقها إلى البيت على دراجته الجديدة التي اشتراها هو نفسه من الأموال التي وصلته كهدية في عيد ميلاده.

لقد كان كلاهما مسافرين إلى الخارج يوم عيد ميلاده. والدته كانت تقوم بجولة لتعرض فيلمها الجديد، أما والده فلقد كان مسؤولاً عن إدارة فيلم تلفزيوني في اليونان، إلا أن كلاهما أرسلا له بطاقات معايدة مع مبلغ سخي من المال حول إلى رصيده الشخصي في المصرف.

اشترى الدراجة بهذا المبلغ وكان فخوراً جداً بها. دراجة ضخمة قوية كرهتها هيزل وجفلت منها ما أن رأتها، إلا أنها كانت بعيدة عن أن توضح عن شعورها الحقيقي لجيمي. أحب جيمي هذه الدراجة؛ وهي كانت تحبه وبالتالي كان عليها أن تحب الدراجة. ودعها أمام باب منزلها مساء ذلك اليوم ثم طبع

قبلة سريعة على خدها قبل أن تستطيع التخلص منه. نظرت فوراً إلى البيت نظرة قلقة خائفة من أن يكون والدها قد رآها.

ضحك جيمي من خوفها ورعبها من والدها، وقلقها من أن يراهما معاً.

سألها جيمي بفضولية: «ماذا لو فعل؟ هل هذا يهم؟ هل هو يمنعك من الخروج معي؟»

أجبرها كلامه على أن تهز رأسها نفياً. خروجها أو عدم خروجها مع الشباب كان موضوعاً لا يمكنها معالجته مع والدها. وحتى مجرد التفكير بالموضوع يجعلها ترتجف خوفاً. والدها لم يكن صارماً أو قاسياً معها بل كان لطيفاً متفهماً حنوناً، ومع ذلك كانت تشعر بأنه من المستحيل أن تخبره عن جيمي. لماذا تخافه؟ لم تكن لديها فكرة حقيقية... ما كانت تدركه فقط وبواسطة غريزتها الأنوثية، أنها مازالت بالنسبة لوالدها تلك الفتاة الصغيرة المدللة التي طالما تمنى أن تبقى كذلك.

برغم أنه وعدها بأن يكلمها بالهاتف، إلا أنها لم تسمع من جيمي أي شيء ذلك المساء ولا حتى في اليوم التالي. وعندما ذهبت إلى المدرسة صباح يوم الأثنين، فاجأها الخبر المفجع الذي كان حديث الجميع. مات جيمي... قتل في حادث عندما عجز عن السيطرة على دراجته، تلك الدراجة التي طالما افتخر بها. تغيبت أخته عن المدرسة.

ورقة صغيرة أرسلت إلى رئيسة الطالبات بشكل عاجل حملت الخبر المؤلم. كما أرسل بطلب والديه، وعرف جميع من لهم علاقة به... إلا هي.

أمضت بقية نهارها تائهة، خائفة، إلى أن حان موعد عودتها إلى البيت.

ما أن وصلت حتى شعرت بقواها تتخلى عنها، ووقعت مريضة غير واعية لشيء... عاجزة عن تقبل ما حدث، عاجزة عن التفكير بأنها لن ترى جيمي بعد اليوم.

لم تذهب إلى المأتم... شعرت بأنها عاجزة عن اختراق حزن العائلة كدخيلة، إلا انها وجدت نفسها في اليوم التالي أمام المدفن. وضعت زهرة صغيرة على قبره. حملت أملها وحزنها وتلت صلواتها الخاصة من أجل حبيبها الغائب.

كان قد مضى أربعة أشهر على موت جيمي، حين علمت أنها حامل، الذي اكتشف ذلك كان أحد أساتذتها الذي أدرك الحقيقة وحاول أن يسألها عن ذلك بطريقة لبقة.

من حسن حظها، تقبلت العائلتان نبأ حملها بطريقة حسنة، وعندما أعلنت أنها تريد الاحتفاظ بالطفل، طفل جيمي، لم يحاول أحد اجبارها على خلاف ذلك.

في ما بعد، وعلى الرغم من اهتمام والدها ورقته في معاملتها، إلا أنها كانت تشعر أنها وبطريقة ما خذلته، صدمته. فلم يكن هذا ما كان يتوقع من ابنته الصغيرة.

مالبث شعورها بالذنب أن تعمق أكثر وأخذ بعداً أكبر حين أعلن والدها بعد مرور شهر على ولادة كاتي، أنه سوف يبيع حصته في المكتب ويحصل على تقاعد. ثم يرحلون ثلاثتهم معاً إلى لندن.

على الرغم من تأكيداته العديدة واصراره على بقائهما معه، هي وكاتي، وعلى الرغم من أنه قد ساندها ووقف بجانبها، إلا أنها شعرت وبطريقة ما أنها السبب في رحيلهم، وأن تربيته لحفيدة غير شرعية هي ما يشعره بالاحراج ويدفعه لاقامة كل هذه التعديلات في حياتهم.

ما كادت تبلغ السابعة عشرة، وكفتاة في مثل سنها، كانت أبعد

من أن تكون قادرة على تحمل عبء ترك المنزل والعيش بمفردها مع ابنتها، حتى لو كانت لديها نية القيام بذلك...

لم يكن هناك طبعاً من مجال لتكملة دراستها، وعند ولادة كاتي لم تعد هي نفسها راغبة بذلك. أصبحت ابنتها هي محور كل حياتها.

عندما علمت السيدة ميروز بأنها حامل، ثار غضبها واستقالت من عملها فاضطرت هيزل لأن تحمل على عاتقها عبء إدارة المنزل. فوجئت من قدرتها على التعامل مع عملها الجديد ومدى اكتسابها من المرأة العجوز. تلك المرأة التي لم تجبرها يوماً على مساعدتها. إلا أنها لم تستطع تقبل وضع هيزل الجديد أو تحمل ما اعتبرته هي، فضيحة واعتبرتها محظوظة لامتلاكها والداً مثل والدها.

طالما سمعت تعليقاتها قبل رحيلها: «فقط لو كنت ابنتي. والدك ذلك الرجل الطيب المسكين، كيف تجرأت وخنت ثقته بك، آه، لا أدري كيف باستطاعته تحمل هذا العار.» عانت الكثير من تعليقات السيدة ميروز اللاذعة، لذا وبعد رحيلها، أقسمت على أنها لن تدع والدها وحيداً، سوف تفعل أي شيء لارضائه، لتعوض عليه ذلك الألم الذي ألحقته به.

قرر والدها الانتقال إلى تشيشاير بالذات، لم يوضح لها ذلك أبداً، لكن هيزل كانت أبعد من أن تهتم بوجهة انتقالهم.

مع انتقالهم، أحبت قرية تشيشاير بحقولها الجميلة، ومناظر منحدر الدرلي البعيد، وتلال ولش الرائعة. لكنها وبعد وصولهم، فوجئت باقتراح والدها بأن تدعي أنها كانت متزوجة من جيمي، مما دفعها لأن تعارضه بقوة وبشكل لا إرادي.

حتى لكي ترضي والدها، كانت هيزل غير مستعدة لأن تعيش في ظل مثل هذه الكذبة. علمت أنها سوف تقابل دوماً من يدينها

ويحتقرها لإنجابها لكاثي، لكنها كانت تعلم أنها بالمقابل لا بد وأن تقابل من يتفهمها ويؤاسيها ويقبل بكاثي على أنها كانت ضحية حادث مؤلم وليست نتيجة لحياة رعناء.

لم تلاحظ هيزل إلا حين بلوغ كاثي سنتها الخامسة كم كان والدها حساساً تجاه وضعها كأم غير متزوجة.

كونه لم يعد للموضوع اطلاقاً، أملت بأنه مثلها تقبل وضع كاثي وحتى لو لم يكن هذا الوضع المثالي لفتاة شابة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها. وما زاد في قناعاتها بذلك، أن كاثي بحد ذاتها كانت حدثاً جميلاً في حياة والدها، عوضت عليه جحود أمها. إلا أنها في ظهيرة أحد الأيام، التقت صدفة، وأثناء التقاطها لكاثي من المدرسة، روبرت بولتون. كان رجلاً جذاباً يكبرها ببضع سنوات ومثلها يمر على المدرسة لأخذ ولديه الإثنين اللذين أخذ حق الوصاية عليهما بعد أن طلق من زوجته. تجاذبت أطراف الحديث معه.

بإنتظار وصول كاثي لم يخطر في بالها، ولو للحظة واحدة، أنه قد يسيء فهم تلك المحادثة القصيرة التي جرت بينهما أمام أبواب المدرسة الخارجية، لم تفكر أبداً بأن وضعها كأم غير متزوجة وكوالدة لطفلة غير شرعية قد يضعها موضع الشبهات ويجعل منها امرأة تودّع عشيقاً لتستقبل عشيقاً آخر.

إلا أنها وبعد أن عادت إلى المنزل وفي ذلك المساء نفسه. عندما أتى روبرت بولتون محاولاً اصطحابها للعشاء. انفجر والدها غاضباً، وعارض تلك الفكرة معارضة تامة. ومع أن هيزل لم يكن لديها نية قبول دعوة روبرت للعشاء، إلا أنها وقفت مذهولة أمام اعتراضات والدها وسورة غضبه ووجدت نفسها

مجبرة على أن تسأله، وأن تلح في سؤاله حول سبب غضبه، بسبب معارضته العنيفة.

جاء جوابه في بادىء الأمر مبهماً، غير محدد.

أخبرها وقد اسود وجهه من الغضب أنه عليها أن تكون حذرة. حتى لا يجعلها الناس موضوعاً للثرثرة.

«ثرثر، تتكلم عن ماذا؟» سألته بتعجب وعدم فهم.

لأول مرة يفقد والدها السيطرة على نفسه.

تملكه غضب مخيف، وذكرها بحنق بأن لديها طفلة غير شرعية. أليس ذلك العار هو سبب وجودهم هنا، بعيداً عن لندن؟ هذا العار لا يمكن نسيانه بشكل تام. فالناس تتكلم، تعرف... وإذا بدأ الرجال يتصلون بها في البيت...

عندها فهمت هيزل، وبهدوء ولكن بحزم أغلقت باب قلبها الذي قد يدفعها إلى التورط في علاقة راشدة مع أي رجل. فهذه العلاقة التي قد تنعش مشاعرها وأحاسيسها كامرأة. هذه العلاقة التي طالما حلمت بها وحسدت الكثير من النسوة لإمكانية مشاركتهن الحياة مع أزواجهن، ليست لها، الآن فهمت أنها أبداً لن تكون من حقها.

في نظر والدها، ستبقى موسومة طيلة حياتها بولادة كاثي. ومن يعلم كم غيره من الرجال يفكرون بهذه الطريقة، ويشعرون بأنها سهلة العريكة ومن السهل الحصول عليها، بسبب ذلك؟

هذا ما كان والدها يحاول إيصاله لها حتى ولو كان محرجاً جداً، في أن يقول ذلك بصراحة. فكأم لطفلة غير شرعية، لديها سمعة سيئة. الرجال يتقربون منها فقط بسبب هذه السمعة، فقط لأنها كامرأة وحسب. حتى ولو كان ذلك غير صحيح لا يمكنها أن تخاطر بايذاء والدها وإغضابه مجدداً، بقيامها بما قد يراه امراً يثير الأقاويل حول أخلاقها.

ذكّرت نفسها بأنها كانت محظوظة جداً، لأن والدها كان مستعداً لايوائها في بيته، ودعمها مادياً. ذلك أنه لولا هذان الدعم والكرم لما كانت حبيبتها كاتي تنعم بنمط الحياة الذي تعيشه الآن. بيت جميل، رعاية تامة، محيط هادىء. عاشت فيه ونشأت بفضل أحوال جدها ودعمه لهما. من دون والدها وتأمينه لمتطلباتهما لكانت حياتهما صعبة جداً. لم تعد هيزل في السادسة عشرة من عمرها الآن. فهي أصبحت تعلم بشكل حسن كم هي الحياة صعبة بالنسبة للأمهات الوحيدات. كم هي محظوظة. وأقل ما يمكنها أن تفعله هو أن تحفظ الجميل لوالدها وذلك باحترام رغباته والأنزواء في البيت معه، تعامله وتراعيه ومع ذلك، هل كان صعباً عليها تقبل مثل هذا الوضع؟ حسناً، لم يكن هناك أي رجل في حياتها، أي عشيق، أو زوج... لكن لديها حبيبتها كاتي. لديها والدها، ومنزلها الجميل.. كما كانت تحاول بتأن إيجاد بعض الأصدقاء الجدد.

وإذا مازالت على ما كانت عليه عندما حملت بكاتي، هل كان ذلك يزعجها حقاً؟ ما تكاد تتذكر شعورها واحساسها عندما أقامت علاقة تلك الليلة مع جيمي، كل ما تستطيع تذكره الآن. أنها لم تتمتع بتلك التجربة، كما أنها لم تشعر بأية رغبة حقيقية لأن تكررها من جديد. ما جذبها وأفرح كيانها هو ذلك الشعور بالألفة التي نشأت بينها وبين جيمي. في ما بعد، الطريقة الحنونة التي عانقها بها، لكن كل ذلك الآن كان بمثابة ذكريات مبهمة، ذكريات فتاة، وليست ذكريات امرأة... وإذا كان الثمن الباهظ الذي عليها أن تدفعه لتحافظ على راحة بال والدها وتحمي في الوقت نفسه كاتي، هو سكناها في شرنقة منعزلة، حسناً، فليكن.

حاولت هيزل طيلة السنين التي مرت، أن تحافظ على علاقتها

الطبيعية مع أهل جيمي. اعترفوا كلهم بكاتي ابنة له، وبالتالي فقد أمضيا العديد من العطلات برفقة والدته، ذلك أنها كانت قد طُلقت من والده لاحقاً. أما بالنسبة لبقية أفراد العائلة، فقد كبروا وتزوجوا وأنجبوا الأولاد، وعملت هيزل بجهد لأن تبقى كاتي على اتصال معهم.

لم تكن تريد لكاتي عذاب الوحدة التي طالما عانت هي منها، لم تكن تريد لكاتي أن تقع فريسة الاهتمام الزائد والقيود المميتة. لم تكن تريد منها أن تكرر الأخطاء نفسها التي وقعت هي فيها، واقترفتها من دون أن تعي ذلك، لم تكن تريدها أن تتفتح بسرعة، أن تنجرف مع نزواتها، أن تركض وراء الحب الزائف وتخطىء في فهم رغبات الشبان اليافعين الحقيقية التي تدفعهم لاثبات رجولتهم عن طريق استغلال اسطورة الحب، وبالتالي لم تكن تريدها أن تصل إلى الخطأ المدمر نفسه، الذي وقعت هي فيه من قبل.

لكن كاتي تختلف عنها، هي بنفسها أخبرتها ذلك. عندما بدأت بالخروج مع أصدقائها الشبان. ونوعاً ما مع شعورها بالذنب، اكتشفت هيزل أنها كانت فرحة بموت والدها، قبل أن تصل كاتي لهذه المرحلة من عمرها، ذلك أنها لم تكن تريده أن يزرع في كاتي تلك العقلية التي زرعها فيها. لم يكن سهلاً عليها تحمل رؤية أصدقاء كاتي يزورونها في البيت. لكن جل ما كان يمكنها أن تفعله هو أن تصلي لكي تكون كاتي قوية كفاية، ناضجة لكي تتخلص من أي ارتباط عاطفي أو علاقة معينة حتى تبلغ سناً ملائمة تستطيع فيها تحمل عواقب أي تجربة أو التزام ما.

لغاية الآن كانت محظوظة. فكرت بذلك وهي تتلمس بنعومة وسادة أخرى من وسائدها. حتى الآن لم ترتبط كاتي بأية علاقة

حقيقية. لكن بالنسبة لها، لديها خوف قاتل من أن تكرر كاتي غلطتها هي.

لم تكن تريد لحرية كاتي ولفرح كاتي، لحياة كاتي أن تغتصب كما اغتصبت مشاعرها وحياتها. وكانت تريد لكاتي كل شيء لم تحصل عليه.

كانت تود لها الأفضل في كل شيء. التربية الحسنة؛ القوة والثقة بالنفس، التي قد تساعدها لاحقاً في بناء حياتها.

علت وجهها ابتسامة حزينة. الفنون كانت موضوعها المفضل في المدرسة. وفي ما مضى كانت تأمل أن تلتحق بجامعة للتخصص في هذا المجال. لكن انجابها لكاتي وضع حداً لكل ذلك. مع ذلك، ما لبثت أن وجدت طريقة للإستفادة من هذه الموهبة، حتى لو اكتشفت ذلك متأخرة بعض الشيء.

بعد موت والدها، وشعورها العميق بالذنب. لم تعد تحتمل وجودها وحيدة خلال النهار في ذلك البيت الواسع. فالتحقت بصفوف تعليمية للراشدين.

أعجبت مدرّستها جداً بمهاراتها فأوصت بها إلى وكالة متخصصة في تجهيز الرسوم التوضيحية المناسبة لمؤلفي الكتب.

عملت هيزل لعامين متواليين، بشكل حصري لكاتب واحد. كانت تقوم بوضع كل تصاميمه الخاصة بكتب الأطفال الشعبية.

لطالما تساءلت هيزل هل كان سيتغير مصيرها، لو أنها اكتشفت موهبتها تلك باكراً. استقلالها المادي قد كان سيؤدي بالتأكيد إلى استغلال معنوي، وبالتالي لكانت نالت حريتها، وحرية الخروج ومقابلة وجوه جديدة والقيام بعلاقات جديدة، ولكانت ربما التقت بفارس أحلامها... لكن بالمقابل، فكرت،

ماذا كان سيحدث لوالدها؟ لأنه بعد تلقيه تلك الصدمة الرهيبة، لم يتعاف كلياً. وبالتالي كان بحاجة دائمة إليها لكي تقف بقربه، تساعده، ترعاه وتستجيب لطلباته التي لا تنتهي. وجد نفسه بحاجة ماسة إليها كما كانت هي بحاجة ماسة إليه بعد ولادة كاتي. وبالتالي شكرت حظها وقدرها لأنهما أتاحا لها فرصة اظهار مدى حبها له وعرفانها لجميله.

الآن، وبعد أن بلغت السادسة والثلاثين من عمرها، وجدت نفسها تتمتع بحريتها العاطفية والنفسية، ولكن متأخرة. فقد أصبحت ناضجة جداً لا تفكر بالقصص الرومنسية وأساطير الحب. في نظرة إلى الرجال من حولها، شاهدت باشمئزاز تلك العلاقات الزوجية المزيفة. وراقبت بغيظ خيانة الرجال لزوجاتهم ومغازلة نساء أخريات بوقاحة متناهية، من دون أدنى اهتمام لما يسببه ذلك من جرح لمشاعر وكبرياء نسائهم، بما في ذلك من قسوة واجرام. لطالما راقبت ذلك النوع من الرجال الذي يأخذ ويأخذ ولا يعطي بالمقابل إلا القليل، القليل. دفعتها تلك الأفكار إلى أن تفكر بأنه لربما القدر كان يشفق عليها من الوقوع في مثل تلك التجارب المؤلمة، وما حرمانها من التمتع بحياة زوجية متكاملة وباشباع حاجاتها الأنوثية إلاّ رحمة لها وسعادة. في مقابل كل ثلاث زيجات تعسة قد تصادف زيجة واحدة ناجحة.

المسافة القاطعة والعوائق التي وضعتها هيزل بينها وبين أي رجل لترضي والدها، استعملتها كوسيلة دفاعية، تختفي وراءها وتخبيء ضعفها بين طياتها، مما دفع كاتي يوماً، لأن تصرخ بوجهها لأنها تتصرف كامرأة في السبعين من عمرها وليس كامرأة في منتصف هذا السن تقريباً.

«أمي أنت حقاً جذابة. جميلة جداً فلا داعي أن تعيشي حياتك هكذا وحيدة.»

أجابتها هيزل: «ألم تأخذي بالحسبان أني أحبذ فكرة العيش وحيدة؟ العديد من النساء يفعلن ذلك. خذي جيسي فينلاي، على سبيل المثال.»

جيسي امرأة أربعينية، ذات شعر أحمر، تملك كوخاً، صغيراً عند مدخل القرية، كما تعمل مراسلة لأحدى محطات التلفزة المحلية. إلا أنها كانت وقحة جداً متفتحة على الآخرين وشعبية جداً مع كل الرجال، ولو أنها كانت أقل شعبية مع نسائهم.

«قد تكون جيسي تعيش بمفردها، إلا انها لاتفتقر إلى العلاقة الحميمة.» أجابتها كاتي بعنف، ثم تابعت بنبرة أقل تحدياً: «هذا ليس طبيعياً، يا أمي. أعرف أنه لا يوجد أي رجل في حياتك. أعرف أنه ليس عندك عشيق في السر، مخبأ في مكان ما. هل كان هناك رجل آخر في حياتك غير أبي؟»

حاولت أن تسكت كاتي، حاولت جهدها أن تخبرها بأن كل هذا ليس من شأنها، إلا أنها وجدت نفسها تعترف بأنه لم يكن هناك أحد في حياتها ما عدا جيمي. أما ما لم تستطع كاتي تخيله، وما لم يكن في نية هيزل إخبارها به، فهو أنها هي، ابنتها، لم تكن إلا ثمرة لتلك التجربة العاطفية الوحيدة التي عاشتها طيلة حياتها والتي لا تتذكرها. إلا أن ما كان يؤاسيها ويخفف من قلقها هو أن لدى كاتي، وهي في الثامنة عشرة، خبرة في الحياة أكثر مما لديها، وهي بضعف عمرها.

برغم أنها حاولت جهدها أن تكون صريحة مع كاتي متفهمة لكل علاقاتها، مصممة على أن تجعلها مدركة لكل المسائل الحميمة، إلا أن هيزل شعرت دائماً أنها عاجزة عن مناقشة مثل

هذا الموضوع مع كاتي. لقد كان بودها أن تصارحها بأن اللذة الحقيقية والتجربة المميزة لها هما أنه يجب أن تقوم بما تشعر أنه مناسب لها، بالذي يشعرها بقيمتها الذاتية. احترامها لذاتها هو دائماً ما يهم، والأكثر أهمية هو أن لا تخضع لضغوط واغراءات أولئك الشبان المنحرفين.

لكن كيف يمكنها مناقشة ابنتها المراهقة بالأمور الحميمة، بالعواطف الملتهبة، وحاجات المرأة، في حين أنها هي نفسها تنقصها الخبرة والمعرفة في هذا المجال؟

منذ أن تركت كاتي المدرسة في بداية الصيف الحالي، بدأت هيزل تشعر تدريجياً بأنها الابنة وأن ابنتها هي الأم. فقد بدت كاتي الآن شابة، ذكية، ناضجة جداً، قادرة على إدارة حياتها أفضل بكثير من هيزل.

راقبت هيزل بفخر وخوف قدرة كاتي على تجنب التعليقات السمجة التي كان يطلقها بعض الرجال المسنين حول كيف أصبحت فجأة يانعة جداً وجذابة جداً. كانت كاتي بلطف ولكن بحزم تضع حداً لكل تلك التعليقات، تفهمهم بأنها ليست مهتمة بهم، إنما اهتمامها يتركز على من هم من جيلها.

راقبت هيزل خروج ابنتها إلى الجامعة بقلب مثقل وعرفت بأنها ودّعت الطفلة الصغيرة وعليها استقبال المرأة. كانت فخورة جداً بابنتها. فخورة بما كانت عليه وفخورة بما قد تصبح. كانت دائماً تصلي بيأس كي تتمكن كاتي من اجتياز المرحلة الجامعية بأمان وأن تجد لنفسها مهنة ومستقبلاً، قبل وقوعها في الحب.

الآن بدا لهيزل أن كل تلك الصلوات لم تجنب كاتي القدر الذي أرادتها أن تهرب منه.

حقيقة. لم تذكر كاتي شيئاً حول وقوعها في حب سيلاس هذا. سيلاس... ما نوع هذا الاسم؟ ولكن الطريقة التي ذكرت كاتي اسمه، وترددها، جعلت هيزل قلقة جداً في هذه الأمور وخائفة من التعرف على هذا الرجل الذي هو مهم جداً كما يبدو، بالنسبة لابنتها. ولكنها في الوقت نفسه كانت تشعر بالنفور من هذا اللقاء. ادركت تماماً أن تعرّفها إليه سيؤكد أهميته في حياة ابنتها.

لم يكن شعورها مجرد غيرة أم؛ ولم يكن أبداً ناتجاً عن شعورها بأنها لم تعد الشخص الأهم في حياة ابنتها... حسناً، ليس عليها.

شدت بتوتر على شفتها العليا.

في الطابق العلوي كان ينتظر وصولها غرفتان مريحتان.

غرفتان. طبعاً. كاتي سوف تنام في غرفتها. أما صديقها، سيلاس هذا...

عضت هيزل شفتها، وحملقت في غرفة الجلوس غير مبالية بالسحر الذي أضفاه ديكورها الخشبي، وسقفها المنخفض وإطار نوافذها ذات النقوش الحجرية.

كان المنزل قديماً جداً، أعجبت به هيزل منذ أن وقع نظرها عليه. لقد توقعت أنه لو لم يكن والدها على عجلة من أمره في تركه لندن، لكان طبعاً اختار بيتاً أكثر حداثة. لكن الآن وبعد أن اشترى هذا البيت الخشبي الجميل في تشيشاير مع حدائقه الواسعة والمناظر الخلابة التي تحيط به، عملت هيزل تدريجياً خلال تلك السنوات على دمغه بطابعها الخاص، لقد نفخت فيه روح الحياة مع كل رقتها ومهارتها الفنية، إلى درجة أن الزائر للمرة الأولى كان يقف مشدوهاً أمام ألوان الغرف الزاهية التي

يغطيها الديباج والحرير ذو اللونين الهادئين، مما يضفي جواً عائلياً حميماً مريحاً يرحب بكل من يدخل إليه.

ربما كان على هيزل أن تستجمع شجاعتها وتسأل كاتي فوراً، إذا كان سيلاس هذا سوف يشاركها المبيت. لكن غرفة كاتي مازالت تحوي ذلك السرير الصغير الذي احتواها طيلة فترة مراهقتها.

لكن هذا ليس مبرراً، أنّبت نفسها بقسوة. فالمنزل يضم خمس غرف للنوم وحمامات. الغرفة التي حضرتها لصديق كاتي كانت أصغرها، وهي الغرفة المحاذية لغرفتها الخاصة. تتوسطها نافذة صغيرة، وسقف خشبي مصقول جيداً. كما تحتوي على سرير كبير مزدوج. كل الغرف ما عدا غرفتها وغرفة كاتي، كانت تحوي مثل هذه الأسرة وقد كان من الصعب عليها جداً أن تستبدل غرفة من دون أن تسمع تعليقات كاتي المزعجة.

ماذا يمكنها أن تفعل لو أعلنت كاتي عن رغبتها في بقاء ضيفها طيلة فترة اقامتها؟ ماذا يمكنها أن تفعل لو أن سيلاس هذا أصر على كاتي بتصرف معين فقط ليظهر لها مدى الارتباط بينهما.

لو يصلان فقط. أو قد يكون من الأفضل لو يتصلان ويقولان بانهما غيرا رأيهما. لقد كانت مرتعبة من لقائه، مرتعبة جداً...

لكن من أجل كاتي سيكون عليها أن تتظاهر بأنها سعيدة من أجلها. سيكون عليها أن تتظاهر بأنه يعجبها.

كفى! أنذرت نفسها. قد يكون فتىً لائقاً. ربما هو يحب كاتي بقدر ما هي تحبه، وربما يكون رقيقاً ومحباً وربما قد يكون لديه أمـاً، خائفة من لقاء كاتي بقدر ما هي خائفة من لقائه.

الفصل الثاني

لا يمكن أن يتأخرا أكثر من ذلك؟ ذكرت كاتي أنهما سيصلان قرابة الساعة الرابعة. والآن قاربت الساعة الخامسة. بدأت هيزل تشعر بتقلص وألم في معدتها. ماذا لو تعرضا إلى حادث؟ هل التاريخ سيعيد نفسه... وتموت كاتي كما مات والدها...

للمرة الثانية كان عليها أن تمنع نفسها من الانسياق وراء مخيلتها.

لقد حضّرت لكاتي عشاءها المفضل بالاضافة إلى فطيرة التفاح الذي عملت هيزل على قطفه وحفظه لعيدي الميلاد ورأس السنة.

كانت هيزل تنتظر بفارغ الصبر الميلاد، فقط لكي ترى كاتي في البيت، تضحك لمجرد التفكير بها كطفلة صغيرة غارقة في حلواها، وذلك لأنها كانت تعلم أن كاتي لم تعد طفلة وأن مع نهاية الفصل، لسنتها الجامعية الأولى، ستكون قد غرقت مع أصدقائها المفضلين، ومن الطبيعي بالتالي، أن تمضي عطلاتها معهم في المستقبل. عميقاً في قلبها كانت تخفي يقينها بأن هذا الميلاد سيكون الأخير الذي ستمضيه مع كاتي. شعرت باحباط في عزيمتها، ثم ما لبثت أن تساءلت: هل عليها أن تتوقع أنها قد تمضي فترة الميلاد هذه السنة مع سيلاس هذا، أو الأسوأ من ذلك، هل سيأخذ كاتي منها ويمضيان سوياً عيد الميلاد في مكان ما بمفردهما، بينما هي...

عند سماعها صوت سيارة تتوقف في الخارج، تقلصت عضلات معدتها، تجمدت في مكانها، لكنها ما لبثت

أن أجبرت نفسها على المضي قدماً نحو الباب الخارجي.

في طريقها إلى الخارج ألقت نظرة خاطفة على المرآة المعلقة فوق المدفأة، كيف يبدو سيلاس هذا؟ كيف يبدو ذلك الرجل الذي هدد هدوءها وصفائها لهذه الدرجة؟ عبست في صورتها المنعكسة في المرآة، متسائلة إذا كان سيلاحظ، أو حتى يهتم، أنها وكاتي تتشاركان تقاسيم الوجه نفسها، شكل العينين اللوزي نفسه، لكن حين كانت عينا هيزل زائغتين غير واثقتين بنيتين يميل لونهما إلى الاخضرار... كما يعني اسمها... كانت عينا كاتي لامعتين، ضاحكتين ذواتي زرقة لافتة. وفي حين كانت خصلات شعر هيزل كستنائية اللون، كانت خصلات كاتي غارقة في سواد حالك كسواد الليل.

لقد أخذت كاتي من والدها لون بشرتها، كما طول قامتها، لكنها تشاركت وأمها تلك التقاطيع الجميلة الجذابة نفسها، وذلك الخصر الدقيق، الكامل والجذاب نفسه. أمر واحد كانت هيزل تحسد ابنتها عليه وهو طول قامتها. وطالما كرهت كاتي صغر حجمها وقصر قامتها، فهي ما تكاد تبلغ الخمس أقدام، ونحيفة جداً حتى أن العديد من الأفراد الذين فاجأوها تعمل في الحديقة، مرتدية سروال الجينز الضيق والقميص الرياضي، ظنوا أنها ما زالت طفلة.

ربما لو سرّحت شعرها بطريقة مختلفة، لكنه كان مجعداً متموجاً بحيث لم يكن بوسعها عمل شيء حياله إلا أن تتركه على هواه.

كان الباب الأمامي للمنزل خشبياً، سميكاً بحيث لم تستطع هيزل رؤية أي شيء من خلاله وهي تحاول فتح الباب، إلا أنها استطاعت أن تتخيل وجه ابنتها الضاحك. استطاعت أن تراها

ترمي نفسها بين ذراعيها وترمي بها أرضاً كما كانت تفعل دائماً... لكن بعد أن قامت بفتح الباب لم تر أي أثر لكاتي.

رأت رجلاً يترجل من السيارة المتوقفة في الفناء الخارجي يبتسم لها بعد أن لاحظ وجودها.

امتزجت خيبة أملها مع ترددها. كائناً من كان هذا الرجل، لا يمكن أن يكون هو نفسه سيلاس صديق كاتي. فهو يبدو رجلاً ناضجاً كبيراً جداً. أقرب إلى الخامسة والأربعين منه إلى الخامسة والعشرين.

قد يكون غريباً أضاع طريقه. إنها متأكدة من أنه لم يكن رجلاً قابلته من قبل أو التقت به يوماً ما، وإلا لكانت تذكرته من دون شك. لقد كان جذاباً جداً بحيث أنه لا يمكن لأية امرأة، رأته سابقاً، أن تنساه بسهولة. بدأ قلبها بالخفقان وكأن عقلها علم بما سجله شعورها. إنه الآن متوجه نحوها بخطوات ثابتة، يرتدي سروال جينز ضيقاً مع قميص حريري أظهر جسداً معافى، قوي البنية.

شعرت هيزل بعاطفة غريبة امتلكت كيانها وعادت إلى الحياة مجدداً في أعماق نفسها. أرادت أن تحيط نفسها بذراعيها بقوة علّها تسيطر على ذلك الشعور، على تلك العاطفة الجياشة التي اجتاحتها.

«سيدة بارتنغتون؟» ردد وهو متوجه نحوها.

كان صوته دافئاً وعميقاً. الطريقة التي لفظ بها اسمها. جعلت هيزل تشعر بدوار خفيف. لكنه ردد اسمها كيف عرف اسمها؟

«ن... نعم. أخشى أني لا أعرف من...»

مدّ يده نحوها مما جعلها تبادره بالمثل بطريقة آلية. عيناها سجلتا تلك المصافحة ما خُطبها بحق السماء؟ لقد صافحت رجالاً من قبل.

شعرت بارتباك شديد. فنظرت إليه غير واثقة.

«إني آسف حقاً. أعتقد بأني لم أعرفك على نفسي.» ابتسم لها وتابع: «سيلاس جاردن، لقد تركت كاتي في البلدة. لقد ذكرت شيئاً حول رغبتها في شراء شيء ما. وطلبت مني أن لا أنتظرها لأنها قد تتأخر بعض الشيء. إلا أنها أصرت على أن آتي إلى هنا وأعرفك بنفسي. لقد ذكرت شيئاً حول رغبتها للاستماع إلى بعض الثرثرات. إنه حقاً، للطف منك أن تستقبليني هنا في بيتك.»

لم تعد هيزل تستمع إليه. كانت تحملق به ومصدومة غير مصدقة.

هذا الرجل لا يمكن أن يكون سيلاس الذي تكلمت عنه كاتي. هذا الرجل لا يمكن أن يكون صديق كاتي. صديقها! امتزج غضبها مع صدمتها. كيف يمكنه أن يقف أمامها هكذا، يحدثها بكل سهولة في حين كان يجب أن يعلم مدى الصدمة التي سببها لها، مدى انزعاجها، مدى... نعم، مدى عدم تصديقها بأنه... بأنه ماذا؟ بأنه يحب ابنتها؟ حاولت أن تفهم ما هو هذا الشعور الذي يعتريها، والذي سيشعرها ببرد شديد، وكأن خنجراً غرز في صدرها؟ لم يكن هذا الشعور شعور أم قلقة على ابنتها؟ لقد كان... لقد كان...

لم يكن شيئاً، قالت لنفسها بسرعة. لم يكن شيئاً على الاطلاق، ولكنه بالتأكيد لم يكن طعنة غادرة ومن المستحيل أن يكون ضرباً من ضروب الخيانة.

ماتت الابتسامة الآن على شفتيها، وسجل وجهها أثر الصدمة المؤلمة التي تلقتها. ما كادت تستطيع أن تشعر بانسحابه وابتعاده عنها بتحفظ شديد. تملكها رعب حقيقي. ووجدت نفسها في وضع محرج غير قادرة على التعامل معها وحتى

أنها لا تعرف كيفية ذلك. عندما حاولت أن ترسم صورة في مخيلتها لسيلاس ذاك، تخيلت شاباً فتياً... فتياً جداً. أما هذا الرجل فقد كان مسناً جداً بالنسبة لكاتي.

بدأت ترتجف، وأحست فجأة بوهن شديد وكأنها ستقع مريضة. اغرورقت عيناها بالدموع وسالت على وجنتيها، شعرت بالاحراج الشديد فعملت على إزالتها.

«إني آسف. أرى أني قد سببت لك صدمة ما.»

بدا ذكياً جداً، حاذقاً جداً، خبيراً بالحياة. شعرت فجأة بأنها خائفة منه. ماذا لو شعر بغضبها، بصدمتها، باشمئزازها، بانفعالها وحاول أن يعاقبها بتجنيد كاتي ضدها؟ للوهلة الأولى أبعدت هذه الفكرة عن رأسها. وأقنعت نفسها بأن هذا لا يمكن أن يحدث ولكنها أيضاً كانت مقتنعة بأنه لا يمكن أن يحدث لكاتي أن تحتاج في حياتها لأن تحب رجلاً في مثل سن والدها.

«حسناً، أعتقد من الأفضل أن ندخل... تبدين واهنة. حذرتني كاتي من أنك تكرهين من يقول بأنك واهنة، ولكن...»

كاتي أخبرته ذلك. ماذا أخبرته غير ذلك؟ تساءلت هيزل بحرقة وهي تتراجع نحو الباحة الداخلية. وهو يتبعها إلى الداخل. إنها تكرهه فعلاً، وكيف يمكنها أن لا تفعل بعد أن قرأت في وجهه، في تعبير عينيه آثار كل تلك السنين. وقارنت هذه السنين وهذا النضوج بحداثة كاتي وبراءتها وشبابها.

إنها تعرف الرجال أمثاله، هذا النوع من الرجال العاجزين كلياً عن معاشرة نساء في مثل أعمارهم وخبراتهم. غرورهم يدفعهم لاستغلال الشابات وبراءتهن. آه، أجل. إنها تعرف هذا النوع جيداً، وهي تحتقره. لكنها لم تتخيل أبداً أن كاتي قد تقع فريسة لمثل هذا النوع من الرجال، لمثل هذا الرجل برغم

جاذبيته... لا شك أن هذا الرجل جذاب بما فيه الكفاية، اعترفت بحقد، وهي تحاول أن تتجاهل تلك الرعشة التي انتابتها بعد أن اكتشفت أنها كانت فريسة لنظرات سيلاس جاردن الثاقبة والمفكرة التي ترسلها عيناه الرماديتان الباردتان.

سألها بهدوء: «هل أنت أكيدة من أنك بخير؟ كاتي...»

ضاعت بقية جملته مع الضجة التي أحدثتها كاتي وهي تفتح الباب الأمامي. وسمعت هيزل ابنتها تناديها ببهجة.

«أمي، أمي... أين أنت؟»

«الشبان، أليسوا صاخبين جداً؟» علق سيلاس جاردن بهدوء في حين كانت هي مسرعة نحو الباب. تعليقه جعلها تلتفت لتلقي عليه نظرة شك وغاضبة بحق السماء. ماذا يحاول أن يثبت، يساوي نفسه بها؟ هل يفكر جدياً بأنها غبية كفاية لتقع في مكائده، أو أنه يحاول بذلك أن يخلق جواً من الألفة بينهما. أو أنه يحاول بذلك أن يجعلها تميل إلى قبوله كصديق حميم لابنتها؟

هذا التغير المخيف أشعل النار في عروقها وحوّل سخطها وغضبها إلى خجل من نفسها. أشاحت وجهها سريعاً عنه قبل أن تكشف تعابيره عما يدور في خلدها من أفكار.

تملكها رعب حقيقي، إذا اختار هذا الرجل القيام بمثل هذه اللعبة، قد يخلق بينها وبين ابنتها الغالية هوّة من المستحيل إزالتها.

رفعت رأسها وابتهلت، آملة أن يأتي وقت، تنقشع فيه الغشاوة عن عيني كاتي وترى ذلك الرجل على حقيقته. رجلاً مسناً منحرفاً، في الخامسة والأربعين من عمره، يحاول أن يحقق ذاته ويؤكد رجولته عن طريق التنعم بحداثتها وصغر سنها. وعندما يحين ذلك الوقت، لن يعود له أي مكان أو أهمية في حياة

كاتي، لكن آنذاك، توقعت هيزل أن يكون قد أصبح من المستحيل دمل الجرح الذي قد يحدثه بينهما.

عليها أن تكون حذرة، حذرة جداً بحيث لا يخونها لسانها أمام كاتي وتظهر لها بالتالي مدى صدمتها وذهولها. كانت تفكر بذلك وهي مسرعة في الرواق الصغير المؤدي إلى الباحة حيث وقفت على رؤوس أصابعها لتعانق ابنتها التي ضمتها بدورها بحنان وقوة.

«لقد خسرت من وزنك.» صرخت بوالدتها باهتمام بعد أن أسندت ظهرها إلى الحائط وأخذت تراقبها وترمقها بنظرات انتقادية. التفتت إلى سيلاس الذي كان قد خرج أيضاً إلى الصالة وسألته مرحة: «أليست تماماً كما وصفتها لك؟» ومن دون أن تنتظر منه جواباً عادت والتفتت إلى هيزل ضاحكة.

«لم يصدقني عندما أخبرته أن لدي أماً أقرب إلى أن تكون مراهقة من أن تكون امرأة ناضجة.» رددت كاتي لإغاظة والدتها.

مع شعورها العميق بالإهانة، اكتشفت هيزل أن الاحمرار خضب وجنتيها وهو أمر اعتقدت أنها استطاعت التحكم به طيلة هذه السنوات.

ضحكت كاتي وأزاحت بدلال خصلات شعرها المتناثرة وهي تقول: «لقد توقفت في القرية خصيصاً لأشتري لك هذه. طبعاً لم أنس هديتك ولكني فكرت أنه يمكننا الحصول عليها الليلة، للاحتفال.»

عندما احتفظت هيزل بصمتها، تابعت كاتي بصوت أرق: «لا تظني بأني قد نسيت، يا أمي. هل ظننت ذلك؟ طبعاً لن أتسبب لك بالاحراج، إذا ذكرت أمام سيلاس أننا سنحتفل الليلة بعيد ميلادك السادس والثلاثين.»

«كاتي!» اعترضت هيزل، بضعف. في الحقيقة، هي نفسها كانت قد نسيت عيد مولدها، في خضم قلقها وانشغال بالها على ابنتها، ولكنها الآن وبعد أن ذكرتها كاتي به. تمنت لو أنها لم تفعل. لم يكن انزعاجها سببه إضافة عام جديد على أعوامها السابقة، بل كان ذلك نتيجة استمرار سيلاس جاردن في النظر إليها بامعان، مما جعلها تشعر بعدم الراحة والتململ. فغر فمه عن ابتسامة صغيرة، وهو يراقبها تحاول أن تتناول زجاجة الشراب من قبضة كاتي، قائلة بحزم: «كاتي، تعلمين أني قد تخليت عن عادة الاحتفال في عيد ميلادي منذ أعوام مضت.»

«قد تكونين أنت فعلت ذلك، لكن هذا لا يعني أن على البقية منا أن نحذو حذوك.» أجابتها كاتي ثم أضافت بدلال: «أمي، متى يحين موعد الطعام؟ أكاد أموت من الجوع، أردت أن نتوقف في طريقنا إلى هنا، لكن سيلاس اعترض على ذلك ورفض تناول تلك الأطعمة التي يحضرونها في المطاعم التي تقدم وجبات سريعة التحضير.» أضافت كاتي بتذمر: «إنه بذلك أسوأ منك.» ألقت هيزل نظرة شك سريعة باتجاه سيلاس، لترى ردة فعله تجاه هذا الانتقاد.

بدا متمتعاً أكثر منه ضجراً، طريقته في معاملة كاتي كانت أقرب إلى عم متسامح منه كعاشق متيم. مما أدهش هيزل، لأن هذا التصرف بدا لها غريباً، فهذا الرجل لا يمكنه أن يكون عاشقاً واثقاً متطلباً. انتابتها رعشة صغيرة، فشعرت بوخز أليم في عمودها الفقري، شعرت وكأنها مُست. جفلت وشعرت بالخجل من تلك الأفكار الحميمة التي تطن في رأسها. أفكار ليس من حقها أبداً أن تفكر بها. سيلاس جاردن هو حبيب ابنتها وليس... ليس ماذا؟ سألت وهي ترتجف. ليس لأنه رجل مميز،

ذو صفات رجولية طاغية، مجرد وجوده في منزلها يوترها، يضعها على حافة الهاوية ويعود بها سنين إلى الوراء وكأنها ما زالت مراهقة؟

هو المخطىء منذ البداية، لو وصل كما كان مفترضاً مع كاتي لما حصل هذا أبداً... لما حصل هذا إطلاقاً... عضت شفتها العليا بقسوة.

ماذا دهاها بحق السماء؟ لقد رأت من قبل رجالاً في غاية الوسامة، تحدثت معهم وأمضت وقتاً برفقتهم من دون أن تشعر بهذا التشتت الذي يعتريها الآن.

نعم، شعرت أنها كانت سائرة نحو الهاوية، لم يكن عليها إلا أن تنظر إليه حتى تشعر بالتفكك في داخلها.

هذا سخيف، قالت لنفسها بحزم، عليها أن تتمالك نفسها وتجمع شتات أفكارها. ماذا يحصل لها بحق السماء؟ بالتأكيد... وقد شعرت هنا بدونيتها لمجرد التفكير بهذا... بالتأكيد لم تكن في طريقها للتحول إلى أمثال تلك النساء اللواتي في أواسط أعمارهن يشعرن بحاجة لاثبات أنفسهن ورفع معنوياتهن عن طريق مغازلتهن اليائسة والفاضحة لأصدقاء بناتهن؟

حاولت يائسة أن تركز على ما كانت كاتي تقوله، فأجابتها بتوتر: «حسناً، لقد حضرت لك عشاءك المفضل. روستو بالبهارات وفطيرة بالتفاح.»

لم تستطع حمل نفسها على النظر إلى سيلاس، وبدلاً من ذلك قالت لكاتي: «كان علي أن أسألك إذا كان صديقك... آ... السيد... لا يمانع بتناول مثل هذا الطبق...»

عندما حاولت سابقاً تخيل صديق كاتي، فكرت في شخص أصغر سناً، وذوقه أقل تعقيداً من هذا الرجل الذي يوجه إليها

الكلام الآن بنعومة قائلاً: «أرجوك نادني سيلاس... ولأقول الحقيقة، وجبة منزلية شهية قد تكون تعويضاً جيداً لي.»

رقصت عينا كاتي من السرور وهي تلقي بنظرها عليه.

«أمي، لا تصغي إليه. لديه العديد من النساء اللواتي يتقاتلن في سبيل تأمين جو عائلي مريح له.»

تستطيع أن تراهن على ذلك، انكمشت هيزل قليلاً على نفسها، وشكت إذا كان طعامهن فقط هو كل ما يود أن يجربه.

لو كانت مكان كاتي لكانت توقعت أن يكون اهتمامها به أكبر من اهتمام ابنتها.

على الرغم من أن علاقتهما كانت بعيدة من كونها علاقة حبيبين، إلا أن ابنتها لا بد وأن تكون متأكدة جداً من مشاعره تجاهها حتى تستطيع معاملته بهذه اللامبالاة. نظرت إلى ابنتها متسائلة، مفكرة، لو كانت مكانها لشكّت بامكانيتها في بناء مثل تلك الثقة بالنفس.

لقد كان مريحاً لها أن تفكر بأن سيلاس رجل محظوظ لكي يحبه شخص مميز وقيّم، مثل حبيبتها كاتي. لكن كاتي وما كادت تبلغ التاسع عشرة من عمرها، بينما هو... غريب كفاية، لم يكن ليشبه رجلاً يحاول تضخيم ذاته بأخذه بين ذراعيه، فتاة أصغر بكثير منه. لكنها لم تكن لتتصور أبداً، أن كاتي سوف تقع يوماً ما بحب رجل أكبر منها عمراً، رجل له من العمر ما يجعله أباها وليس حبيبها.

تملكها شعور بالذنب، هل هي السبب، هل هو خطأها كونها لم تؤمن لكاتي والداً يحميها، فوقعت ابنتها بذلك الخطأ المميت وأحبت هذا الرجل؟

استعجلتها كاتي قائلة: «هل سيطول موعد تناول العشاء، يا أمي؟»

«آه، ليس طويلاً... حوالى الساعة.»

«عظيم، سوف أصعد مع سيلاس لأريه غرفته ثم أعود حالاً لأساعدك ونغتنم الفرصة للتحادث. بالمناسبة في أية غرفة سوف يستقر؟»

في خضم قلقها لفارق السن ما بين ابنتها وسيلاس، نسيت هيزل قلقها حول ترتيبات النوم التي أعدتها لهما.

عادت الآن إلى ذاكرتها فجأة واكتشفت أنه كان من المستحيل عليها النظر إلى سيلاس وقالت: «لقد رتبت لك... للسيد سيلاس غرفة الرعاية. تلك التي تقع إلى جانب غرفتي.»

آه. لم شعرت بأن وجنتيها التهبتا عندما نطقت ذلك؟ لماذا فجأة، ارتسمت في مخيلتها صور حميمة لسيلاس وهو مستلق تحت الدثار في الغرفة الإضافية. بشرته البرونزية، كتفاه العريضتان، ورجولته الطاغية...

انتابتها رعشة قوية وحاولت بضعف أن تزيل تلك الأفكار الشاذة الغلمية من مخيلتها. يا للسماوات. قد لا يكون لهذا الرجل لون برونزي، هذا لا يهم...

«غرفة الرعاية. لقد وضعت سيلاس في غرفتي القديمة.» ضحكت كاتي باستهزاء وتابعت: «إذا لم تستطع أن تنام، كل ما عليك أن تفعله يا سيلاس هو أن تتلهى بقراءة كتبي القديمة. هيا تعال، سوف أصطحبك.»

كانت هيزل على وشك الصعود معهما، وحتى أنها خطت خطوتين باتجاه السلالم. عندما أدركت أنهما قد يرغبان ببعض الخصوصية بمفردهما، حتى أكثر الأمهات تعصباً واهتماماً،

ليس باستطاعتهن أن يلعبن دور الحارس أربعاً وعشرين ساعة في النهار.

على الأقل تقبلت كاتي بهدوء فكرة عدم تجهيز غرفة واحدة لهما ولم تستطع أن تمنع نفسها من التساؤل إذا كان سيلاس، نفسه قبل بهذا الأمر بهدوء.

إنه رجل ناضج، تخطى منذ زمن بعيد فترة اختلاس القبلات أو أي شيء آخر من وراء ظهر المقيمين أو المراقبين.

تجمدت بمجرد قدومه نحوها، واحمرت وجنتاها بمجرد إدراكها أنها تقف بينه وبين السلم، فتنحت بسرعة مفسحة المجال له ليمر.

النظرة التي ألقاها عليها وتَرتها، وبدا لها وكأنه رأى ما يعتمل في نفسها، وترك عندها انطباعاً وكأنه يعرف جيداً مدى التذبذب الذي يخلقه فيها.

بينما كانت متوجهة نحو المطبخ، مصممة على أن لا تقف هناك تراقبهما، في اللحظة التي وضعت فيها كاتي يدها في يده، وصعدا معاً درجات السلم الواسع جنباً إلى جنب، علمت أن الأمر الأخير الذي توقعته في خضم قلقها على نتائج هذه الزيارة هو انجذابها العميق نحو حبيب ابنتها، حتى أنها شعرت فجأة وكأن بشرتها تقلصت وأعصابها بدت حساسة جداً ومؤلمة بعض الشيء.

لقد كرهت تجاوبها وانجذابها لسيلاس. كرهت استنتاجها بأنها وبشكل مريح ومؤلم تحسد كاتي على هذه العلاقة. ولكن لماذا ينتابها مثل هذا الشعور؟ لقد كانت هناك أوقات في الماضي، كانت تشعر فيها بشوق وحنين لعطف واهتمام رجل ما، يحبها ويريدها جسدياً وعاطفياً، لكنه كان عليها بالمقابل

أن تتعلم كيف تضع حداً لأحلامها الصبيانية وتعود إلى الواقع، فليس هناك وجود لمثل هذا الرجل إلا في الرغبة هذه، كما حدث ظهر هذا اليوم. ربما لأنها لم تستطع أبداً أن تتصور إمكانية وجود مثل هذا الرجل، فهي لطالما اعتبرت أن الرغبة الحسية ليست إلا نتاج علاقة عاطفية طويلة، وبما أنها لم تسمح لأي رجل بالاقتراب منها بما يكفي لانشاء مثل هذه العلاقة، فوجدت نفسها آمنة من كل تعطش مؤلم كالذي تعاني منه الآن.

كانت منتصبة في مكانها تحملق تائهة إلى عجين الفطيرة، عندما دلفت كاتي إلى المطبخ صارخة بحماس: «حسناً، يا أمي... أليس سيلاس أجمل رجل رأيته في حياتك؟»

أجابت هيزل من دون انفعال: «يبدو ودوداً.»

عبست كاتي وسألتها بسخرية: «ودود!؟ أمي، بالله عليك، إنه أكثر الرجال إغراء على الإطلاق، إنه...»

قاطعتها هيزل بحدة: «كاتي، علي أن أضع هذه في الفرن.» آخر ما كانت بحاجة إليه هو وصف مجنون لقدرات سيلاس، ليس فقط لأنها شعرت بأنه غير مناسب لابنتها. لم ترد أن تسمع ذلك لأن... لأنها كانت مرتعبة من أنها لن تستطيع تحمل سماع ذلك.

«أمي، ماذا هناك؟» عبست كاتي وغابت الابتسامة عن شفتيها وعن عينيها. اقتربت من الفرن، انتزعت الصينية من يد أمها، وضعتها جانباً بحزم ثم أمسكت بوالدتها وأدارتها لتستطيع مواجهتها.

وجهت الاتهام لها: «إنك لاتحبينه أليس كذلك؟»

«لا... أجل، أف... أنا... آه، كاتي، لم أكد ألتقي به، و...»

توسلتها كاتي بالحاح: «أمي، أرجوك، فقط امنحيه فرصة، إني أعلم أنك سوف تحبينه.»

كم كان خطأ استعمال كاتي لهذه المفردة، لهذا الفعل، لكن جزءاً منها، غريباً، شاذاً، منبوذاً، يصرخ بتمرد. لماذا عليّ أن أحبه؟ لأنك تحبينه أنت؟ ألا ترين الفارق في ما بينكما؟

سألتها كاتي: «ما الذي لا يعجبك فيه؟» وبقيت هيزل صامتة. ماذا باستطاعتها أن تقول؟

شعرت باختناق وحاولت التحكم بردة فعلها فقالت: «حسناً، ليس الأمر أني لا أستلطفه، يا حبيبتي. كل ما في الأمر أنه أكبر عمراً مما تصورت.»

«أكبر عمراً.» عبست كاتي وقتم وجهها. سألت والدتها بعدوانية: «بحق السماء، ما دخل سنه بما يدور بيننا؟ وفي كل الأحوال إني أعتقد أنه في السن المناسب.»

عضت هيزل على شفتها، وشدت على جانبها المنتفخ بين أسنانها، بعد أن غمرها شعوراً باليأس. لقد حدث ما كانت خائفة منه... لقد بدأ فعلياً يبعد المسافة ما بينهما. طبعاً لقد كانت كاتي مقتنعة بأنه في السن الملائم لها وبالتالي لا يجدر بها نفعاً متابعة هذا الموضوع.

حاولت جاهدة أن تعيد المياه إلى مجاريها فسألتها بهدوء: «كم تدوم عطلتك؟»

«حسناً، أستطيع البقاء هنا ليومين ليس أكثر، إنما سيلاس سوف يمكث حتى عيد الميلاد، إذا كنت لا تمانعين.»

«حتى الميلاد!» فغرت هيزل فاها واستندت إلى الكرسي لتحمي نفسها من الوقوع. «كاتي، لكن هذا مستحيل. أعني...»

أجابتها كاتي بعناد: «لا، ليس مستحيلاً. لماذا لا يبقى هنا؟ عندما أخبرني أنه يضع كتابه الجديد هنا في تشيشاير وأنه يريد القيام ببعض الأبحاث هنا في هذه المنطقة. فكرت فوراً بأن هذا

المكان سيكون المكان المثالي له. لم يكن متأكداً في باديء الأمر، وتطلب الأمر فترة حتى أقنعته بأنك لن تمانعي.»

حملقت هيزل بها عاجزة عن الكلام فتمتمت: «حقاً؟»

بعد أن رمقت ابنتها بنظرة حادة، استدركت كاتي قائلة: «حسناً، ربما كان يجدر بي أن أسألك أولاً، لكني كنت على يقين من أنه لو أخبرتك بأن أحد كتابك المفضلين هو من يدرسنا ويلقي علينا المحاضرات، وأني قد دعوته إلى هنا لأنه يبحث عن مكان محلي يمكث فيه ريثما ينتهي من أبحاث كتابه الجديد، لكنت قدمت لي مئات الحجج وكل أنواع الاعتراضات، لكنك لا تستطيعين خذلي الآن، لن تحصل أية متاعب. حتى أني متأكدة من أنك لن تشعري حتى بوجوده.» أضافت من دون أن تبالي بالتعبير الذي ارتسم على وجه والدتها: «أعني أنه يستطيع استعمال غرفة جدي القديمة الملحق بها حمام خاص. ويستطيع أن يعمل في مكتبة جدي. في أي حال سوف يمضي نهاره خارج البيت. لقد قال إنه يريد زيارة غوزورث. تصوري، فكري كم هو رائع، عندما يرى كتابه النور، ويعرف الجميع بأنه كتبه هنا. سوف يكون عليك أن تعلقي يافطة كبيرة كتب عليها: «هنا أبصر كتاب تشارلز كرتشاو النور.»

حملقت هيزل بابنتها بذهول وقالت: «تشارلز كرتشاو؟ لكنك قلت إن اسمه سيلاس جاردن.»

«نعم، هذا اسمه الحقيقي، لكنه يكتب تحت اسم تشارلز كرتشاو.»

كرتشاو كان اسم والدته قبل الزواج، أما تشارلز فهو اسم والده. لقد أخبرني أنه عندما بدأ في الكتابة لأول مرة، كان لا يزال يحاضر طيلة النهار وبالتالي كان مضطراً لأن يلجأ إلى استخدام اسم مستعار.»

رفعت هيزل يدها نحو جبينها في حركة آلية مترددة.

سيلاس هو نفسه تشارلز كرتشاو، أحد كُتابها المفضلين، وكاتي دعته ليقيم عندهم لإنهاء أبحاث كتابه الأخير. إذاً ابنتها كاتي، وتشارلز كرتشاو حبيبان! من كان يصدق؟

فكّرت بالرقة والمهارة اللتين يصيغ بهما المشاهد الرومانسية في رواياته ممزوجه بقناعة مخيفة، بأن تلك المهارة و تلك الرقة، من المؤسف اهدارهما على فتاة صغيرة طائشة، صاخبة كابنتها.

حاولت فوراً السيطرة على هذه الأفكار المدمرة. أفكار لا يحق لها أبداً أن تدعها تمر في بالها. سمعت صوت كاتي خلفها يتساءل بحيرة: «أمي، ما الذي يزعجك؟ اعتقدت أنك سوف تسعدين بهذا الخبر؟»

سماعها لصوت كاتي وما يسوده من حب وقلق جعلها تضع جانباً مشاعرها وتقول بتبرم: «تماماً كما ظننت بأني سوف أسعد حين أتيت بحلزوناتك من الحديقة وتركتها تسرح على أرض المطبخ.»

«حسناً، أنت اشتكيت لأنها تأكل أزهارك. وقلت إنك عاجزة عن إيذائها، كما أذكر أنك قد هددت بقتلي أنا، عوضاً عنها.»

انفجرتا فجأة ضاحكتين، الارتياح الذي شعرت به بعد ذلك الانقباض الرهيب في أعصابها دفع الدموع إلى عيني هيزل.

تمتمت هيزل بيأس: «آه، كاتي. لا يمكنني...» لا يمكنني أن أدع حبيبك يمكث هنا معنا، كانت على وشك القول، حين رأت سيلاس يدخل إلى المطبخ، ويبدأ بنقل نظراته الثاقبة ما بينها وبين كاتي.

شعرت باحمرار خديها وبريق عينيها الدامعتين، فاستدارت

هيزل نحو الفرن وأسرعت في فتح بابه ووضع العجينة في داخله.

في حين صبت جام غضبها على ما تفعله، سمعت كاتي تقول لسيلاس برقة وبشكل خاطىء: «كنت ما زلت أكشف لأمي هويتك الحقيقية، يا سيلاس، ومع أنها خائفة من أن تصارحك، إلا أنها فرصة لا تعوض بمكوثك معنا. فهي لا تستطيع الانتظار حتى تذهب وتطلع صديقاتها على هذا الخبر المهم، أليس كذلك، يا أمي؟»

اعترضت هيزل بحنق: «كاتي.» أغلقت باب الفرن واستدارت لتواجه ابنتها. ربما كان والدها على حق عندما اتهمها بالتسامح والتساهل مع ابنتها. برقت عيناها غضباً والتفتت نحو كاتي ولكن للمرة الثانية ظلت كلماتها معلقة في الفضاء حين تدخل سيلاس بمرح:

«إني فعلاً شاكر لك ضيافتك، يا هيزل. وعليّ أن أعترف بأنه عندما اقترحت علي كاتي، أن أمكث هنا معكما ريثما أنجز كتابي الجديد، كنت متردداً بعض الشيء. طبعاً، إنه لطف منك أن تقترحي ذلك عليّ، لكن علي أن أعترف بأنه من الأمور الأكثر صعوبة هو العيش مع كاتب، خصوصاً أثناء قيامه بعمله، وكنت أخشى أن تكون كاتي قد أضفت، سهواً، بريقاً لامعاً لفترة وجودي معكما. لكن، يجب أن أعترف الآن وبعد أن التقيتك كم كانت مخاوفي مخطئة. من الواضح أنك سيدة حساسة جداً، على الرغم من كل التعليقات اللعوبة التي ذكرتها ابنتك.»

تسمرت هيزل في مكانها غير مصدقة لما تسمعه.

صرخت كاتي باشراق: «عظيم، إني سعيدة الآن، لأن هذه المشكلة قد سويت، ولو كان عليك أن تغير غرفتك، يا سيلاس.

كنت أقول لأمي إنك سوف تكون أكثر ارتياحاً لو استعملت غرفة جدي القديمة. لها حمامها الخاص، كذلك تحتوي على سرير واسع وضخم.» أطلعت كاتي سيلاس ببرود قبل أن تستدير وترى وجه أمها الذي كان يشتعل ألماً.

إلا أن سيلاس لاحظ ذلك، وعلى الرغم من الاضطراب الذي اعتراها ودموع الخجل والاحتقار التي ملأت عينيها، استطاعت هيزل أن تشعر بنظرته الثاقبة المركزة عليها.

آه، يا إلهي لا تجعله ينتبه لمعاناتها. كاتي ما زالت طفلة صغيرة لاهية، أنانية كما غيرها من الشبان في مثل سنها، لن تشك بما يدور في خلد والدتها من أفكار مؤلمة، حزينة تقض مضجعها، حتى أنها لن تفكر بذلك الاحساس البغيض الذي تشعر به والدتها، الآن، هذا اليأس الحاد الذي يتملكها لمجرد تخيلها بأن كاتي وسيلاس سوف يتشاركان ذلك المخدع القديم الذي صنع خصيصاً لزوجين محبين.

إلا أن يأسها هذا لم يكن سببه، كما كانت معتقدة، قلقها العميق على شعور كاتي وأمانيها العاطفية. لا، سبب هذا اليأس عاطفة أقل صدقاً وقبولاً. لقد كان سببه الغيرة.

ها هي تعترف لنفسها. لقد شعرت بالغيرة من ابنتها. بالغيرة منها لأنه يريدها هي، يرغبها هي. يا إلهي، ماذا أصابها؟ هل هي حقاً تريد أن تحل مكان كاتي؟ هل هي حقاً تعتقد أن سيلاس سوف يراها، بأي حال من الأحوال جذابة ومغرية؟ ليس على المرء إلا أن يقارن ما بينها وبين كاتي حتى يدرك استحالة ذلك.

كاتي شابة جداً، ابنة تسعة عشر ربيعاً. أما هي ففي السادسة والثلاثين، جسدها لم يعد يافعاً كجسد فتاة شابة بل إنها الآن امرأة.

امرأة، وأم أيضاً، لقد أنجبت طفلة. هذه الطفلة تقف أمامها الآن بثوب امرأة جذابة جداً، جميلة في ريعان شبابها واغرائها. أما هي... بالنسبة لها كل هذه السنين الجميلة قد ولت. ما زالت تتمتع بمظهر تحسدها عليه الكثيرات من صديقاتها، لكنها لا تتمتع بأنوثة فتاة يانعة فقدت بشرتها ذلك البريق الذي ينضح به جسد كاتي... وجهها فقد حيويته في حين امتلأت خدود كاتي حيوية. ليس هناك من رجل في كامل قواه العقلية يمكن أن يفضلها بعد قيامه بهذه المقارنة مع كاتي، وخصوصاً ليس رجلاً أعلن منذ البدء خضوعه لمفاتن وجاذبية اليانعين.

لم تستطع الاعتراف حتى لنفسها بأنها تمنت لو أن كاتي احتفظت بهوية سيلاس الحقيقية لنفسها ولم تخبرها بها. لطالما تساءلت هيزل عن الرجل الذي أبدع في كتابة الروائع القصصية التي أمتعتها كثيراً، الآن وبعد أن واجهت الحقيقة، شعرت حقاً بخيبة أمل. من الناحية البنيوية، قد يكون من أكثر الرجال إثارة وإغراء، لكن من الناحية الفكرية، العاطفية... مع كل ارتباكها وقمعها لرغبتها به لم تستطع منع نفسها من الشعور بالأسف، قوته تلك، نضوجه، قدراته التي شعرت بها في رواياته كانت أوهاماً. وهو في الحقيقة ليس إلا رجلاً ضعيفاً، مغروراً، خالياً من كل تلك الصفات التي اعتقدتها موجودة فيه.

حسناً، قد يكون كذلك، فكرت في يأس. لكن على الأقل هذه المعرفة سوف تساعدها في تخطي المرحلة المقبلة.

«أرأيت، يا سيلاس، كنت على حق.» ثم تابعت كاتي بفرح: «ألم أقل لك منذ اللحظة التي ذكرت فيها رغبتك في اتخاذ تشيشاير مقراً للقيام بأبحاث لكتابك الجديد، أنك سوف تحب الإقامة مع أمي. صحيح أنها قد لا تبدو كذلك، لكنها تستطيع أن

تكون وحشاً قاتلاً إذا أرادت وأنا أكيدة من أنها سوف تحرص جيداً على أن لا يقاطع عملك أحد.»

وضعت أفكارها المدمرة جانباً وألقت نظرة متمعنة على ابنتها.

بدت كاتي يانعة جداً وبريئة لكنها مع ذلك بدت امرأة. امرأة ناضجة كفاية لكي تمنع أياً كان من الاقتراب من حبيبها أو التدخل في شؤونه في غيابها وذلك بوضعها هي، والدتها، حارساً عليه. ولكن من سيقوم بحراسة الحارس؟

كانت تعلم مسبقاً جواب سؤالها هذا. يجب أن تكون هي نفسها الرقيب المحاسب. يجب أن تتأكد من أنها ستمسك زمام القيادة وتسيطر على مشاعرها. بحيث لا يستطيع سيلاس نفسه، تكهن مدى تأثيره عليها.

على الأقل هي شاكرة لأمر واحد وهو أنه ما يكاد يشعر بوجودها. ما يكاد يفعل. قد تكون أصغر منه بعدة سنوات لكنها ما زالت بضعف عمر ابنتها.

كفى. كفى، أنّبت نفسها في حنق. ما خطبها بحق السماء؟ في المرحلة السابقة، آخر ما كان يهمها، آخر ما كان يقلق تفكيرها، آخر ما كان يشغلها، أنها تخطت مرحلة شبابها وإغرائها كأنثى. لا، بالتأكيد! منذ موت والدها وجدت نفسها سعيدة لأنه ليس عليها أن تبقي أسيرة رغبات مقلقة، لأنها لم تعد في مرحلة تجد فيها الرجال مندفعين لمغازلتها.

لم يكن يزعجها سماع تذمرات كاتي، إنها تتصرف كامرأة مسنة في حين أنها ما زالت في ريعان شبابها. بالنسبة لكاتي فهي لم تكن تعاشر ذلك النوع من الرجال الفضوليين إثر معرفتهم بماضي والدتها ولا شرعيتها هي، والاستنتاجات

المخيفة التي يسرعون إليها نتيجة هذه المعرفة، وكانت تبتهل إلى الله أن لا تفعل.

لم تكن هيزل لتشك ولو للحظة واحدة بمدى رغبتها في أن تبدأ كاتي حياتها، لكنها في الوقت نفسه كانت تريد لكاتي أن تحقق أكثر بكثير مما حققته هي، عندما كانت في مثل سنها. لقد أحبت ابنتها إلى درجة العبادة، وكانت تأمل أن يأتي ذلك اليوم الذي تشعر فيه كاتي بفرح إنجاب طفل، لكن ليس قبل أن تصبح ناضجة كفاية، كي يكون باستطاعتها تحمل الصعوبات والمسؤوليات التي ترافق هذا الحدث. ليس قبل أن تصبح في وضع يخوّلها أن تشارك هذا الفرح وهذه الصعوبات مع رجل يحبها كما تستحق أن تحب.

«آه، على فكرة، يا أمي، نسيت أن أخبرك بأن جدتي قد قدمت لزيارتي الأسبوع الماضي.»

نظرت هيزل بامعان إلى ابنتها.

«آن... كيف حالها؟»

قالت كاتي ضاحكة: «خلابة وهل تعلمين؟ يرافقها شاب جميل جداً. حسناً، ليس شاباً في الواقع، بل رجل لكنه يصغرها، على الأقل بعشر سنوات، لكن من الواضح أنه يحبها جداً، وهي وكأنها تسير فوق النجوم. يجب أن تريهما معاً، يمشيان متشابكي الأيدي وكل منهما ينظر إلى الآخر بشغف وحنان... صراحة بالنسبة لي، أشعر أن هذا الأمر مبالغ فيه بعض الشيء. سوف يمضيان عيدي الميلاد ورأس السنة في سويسرا وقد دعتنا أنا وأنت لتمضية عيد رأس السنة معهما. قالت إنها سوف تتصل بك وترسل لك تحياتها.» تغيرت ملامح كاتي في حين تابعت: «هل تدركين؟ لقد قالت لي إني أشبه والدي تماماً. وإنها

أحياناً تكاد تنسى ملامحه إلى أن تعود وتراني فتعود وتراه أمامها. أمي، هل تتذكرين والدي، أعني جسدياً؟»

جسدياً. تدفقت الدماء إلى وجنتيها. كانت تعلم أن كاتي لم تحمل عبارتها أي معنى جنسي، فقط كانت تسألها عن مظهر والدها الخارجي.

«نعم ولا.» أجابتها هيزل بسرعة، مدركة بأنها كانت فريسة لنظرات سيلاس المتمعنة. هل كان يعتقد بأنه من الممتع أو بالأحرى من المثير للشفقة أن تكون كاتي حصيلة علاقة بين شابين صغيرين ساذجين يختبران الحب لأول مرة، وكأنه لعبة كبريت يلعبان بها مع الوصول إلى النتيجة المدمرة نفسها؟

على ضوء معرفتها بكاتي، فهي بالطبع، لم توفر أي معلومة صغيرة أم كبيرة لم تقصها على سيلاس. لقد كانت كاتي دائماً مشرقة، منفتحة على الغير، غير خجلة من والدتها أو من تاريخ عائلتها المخجل الذي لم يكن سببه إلا هي بالذات. لذلك قررت أن أي عبء أو شعور بالذنب يتعلق بولادة كاتي يجب أن تتحمله هي بالذات. لم تدّعي أبداً أن قصة حبها وجيمي كانت قصة حب العصر، لقد ترعرعت كاتي مدركة أن والدها قد مات ولما بلغت مرحلة من العمر كانت قادرة فيها على فهم الحقيقة، شرحت لها هيزل بهدوء وروية كيفية حملها.

لقد عرفت لاحقاً أن آن كانت في مثل صراحتها، وقد كانت هيزل شاكرة لوالدة جيمي دعمها في جعل كاتي تتخلى عن فكرة تقديس والدها واتخاذه كمثال أعلى تحتذي به. لذلك نشأت كاتي وتفكيرها في والدها أقرب إلى صديق منه كوالد.

جيمي الذي تتذكره الآن كان مراهقاً، أقرب إلى أن يكون فتى صغيراً، فكرة حبها له تبدو الآن مضحكة. لقد حزنت عليه، على

شبابه، نعم، لكنه لو عاش ولم يتعرض لذلك الحادث المشؤوم، لكانا الآن غريبين، لا يجمعهما أي شيء إلا الطفل الذي أنجباه إلى هذا العالم.

«هل تعتقدين بأنه لو كان ما زال على قيد الحياة، كنتما تزوجتما؟» سألتها كاتي بفضول وكأنها قرأت أفكارها اللاواعية.

أخذت تعض شفتها العليا لا إرادياً كما كانت تفعل دائماً في حالات توترها، تمنت هيزل لو أن كاتي أقل الحاحاً وأكثر لباقة. لم تكن تريد مناقشة هذا الموضوع أمام سيلاس، لكنها عادت وفكرت بكآبة، أنه قد لا يكون بينه وبين كاتي أسرار، لذلك، اعتقدت بأنه يجب أن لا يكون عند أمها أيضاً تحفظ تجاهه. لقد نسيت مع الوقت كم هو رائع تفكير الشباب وحتى أنانيته في بعض الأحيان.

لأنها كانت حريصة جداً على صراحتها مع ابنتها، طبعاً بقدر استطاعتها، قالت، بعد أن قمعت رغبة عنيفة لأن تلقي نظرة على سيلاس لترى ردة فعله على كل الذي يجري بينها وبين ابنتها، إلا أن هذه الرغبة كانت تقاومها رغبة أخرى، في القوة نفسها، من أن تجعله يشعر باحاسيسها: «بصراحة، لا أعلم، يا كاتي. أعتقد بأن أبي كان سيضغط علينا للقيام بهذه الخطوة. لكننا كما تعلمين، كنا صغيرين جداً على مجرد التفكير بالزواج، ولو كنا تزوجنا لكان انتهى هذا الزواج بكارثة علينا وعليك. لقد كان جيمي في السابعة عشرة من عمره فقط.»

«وأنت كنت ما تزالين في السادسة عشرة. لقد كان بامكانك عرضي للتبني.»

قالت هيزل بحزم: «لم أكن أريد ذلك. لقد كنت محظوظة جداً بوجود والدي الذي أبدا استعداده لأن يقف

إلى جانبي ويساعدني. لقد كانت صدمة عنيفة له، إني أعرف ذلك.»

سألتها كاتي: «ولك أنت؟ ألم يشكل لك ذلك صدمة أيضاً؟ أعني بأنك لم تكوني في وارد أن تصبحي حاملاً... لكن أعتقد بأنه لم يكن يوجد في تلك الأيام وعي كافٍ و...»

«أنا. أنا أكيدة من أن سيلاس ليس مهتماً بكل هذا الموضوع، يا كاتي.» قاطعتها هيزل متسائلة لماذا بحق السماء تتعرض كاتي لهذا الموضوع بالذات من بين كل المواضيع؟

عندما دخلت كاتي مرحلة النضوج، عملت هيزل على تمضية أوقاتاً طويلة، طويلة جداً برفقتها، تناقشها تفاصيل علاقتها القصيرة مع جيمي... بكل صدق وصراحة، معترفة لابنتها بأنها كانت ساذجة جداً، تفكر في خلفية ما كانا يفعلانه وبأنها لم تكن حقيقة ترغب بجيمي أو بأية علاقة معه أو مع غيره، لكنها وافقته على اقتراحه وخضعت لرغبته. لقد أحبته طبعاً، لكن بالقوة نفسها التي من الممكن أن تحب بها صديقاً حميماً أو قريباً مخلصاً. لم يكن هناك شيء حميم في تلك العلاقة، لقد كانت صغيرة جداً، غير ناضجة ولم تعرف بوجود مثل ذلك الشعور وتلك الحاجات.

«آه، سيلاس يعرف كل شيء عن ماضيك الأليم والمحزن.» قالت كاتي برقة متجاهلة اختناقها، أو النظرة المؤلمة التي ارتسمت في عينيها وتابعت: «لم يصدقني عندما أخبرته عن سنك، واعتقد بأنك لا بد وأن تكوني زورت شهادة ولادتك. حسناً يا سيلاس، هل ترى بنفسك الآن، أني لم أكن أكذب؟»

توتره جعل هيزل ترمقه في قلق. أمر ما ضايقه أو أزعجه. لقد كان عابساً بشكل شبه مخيف. شعرت بخوف داخلي على

كاتي وتمنت أن لا يدفعه ما حصل لأن يصب جام غضبه على رأسها الرقيق. هذه هي المشكلة التي تفرض نفسها على أية علاقة غير متكافئة... كاتي لن تكون أبداً نداً أو خصماً حقيقياً له، وهي متأكدة من أنه سيقوم بأي شيء ليجعل ميزان القوة في علاقتهما يميل إلى مصلحته ولكي تظل كاتي معبودته الجميلة ساجدة عند قدميه.

لغاية الآن لم يكن هناك شيئاً من التبجيل أو الخوف في النظرة الضاحكة التي ألقتها كاتي عليه بعد أن لاحظت هي أيضاً انزعاجه.

حذّرت كاتي أمها بمزاح: «أمي، عليك أن تراقبيه.» وتابعت: «لديه مزاج عنيف. إنه دائماً، في الصف، يلقي الرعب في قلوبنا.»

عبست هيزل بدورها. لم تعجبها فكرة، كون كاتي متورطة مع شخص ذو ميل للعنف، على الرغم من أن كاتي ليس عندها مثل هذه التحفظات.

لتكون صريحة مع نفسها لم تحبذ الوضع برمته، ولا أن تكون كاتي متورطة أصلاً مع هذا الرجل.

في حين لم تكف كاتي عن ثرثرتها وحماسها وأخبارها المتعددة، حول حياتها الجديدة كطالبة جامعية، طيلة فترة العشاء، احتفظت هيزل بصمتها.

لكم انتظرت هيزل بفارغ الصبر زيارة ابنتها الأولى إلى المنزل، لكنها لم تكن لتتخيل أنها لن تكون وحدها.

وضعت شوكتها وسكينها جانباً، برغم أن طعامها ما كاد يمس، مما دفع كاتي لتقول بحنان: «أمي، ما خطبك؟ لم تأكلي

شيئاً. الرجال يحبون النساء الممتلأت قليلاً، أليس كذلك، يا سيلاس؟»

تراقب جمال ابنتها ورقتها، وجدت هيزل نفسها تحسدها على جسدها الناعم الأملس وعظامها الطويلة المتناسقة.

شعرت وكأنها قزماً بالمقارنة بها.

«ليس هناك من رجل حساس يود رؤية امرأة وكأنها تموت جوعاً، عظامها ضعيفة بارزة مما يجعل من ينظر إليها يفكر بأن ليس لديها ما تقتات منه. الأذواق تختلف، طبعاً، لكن يجب أن أعترف أن هناك شيئاً ما في هذه القدود الصغيرة الضعيفة كقد والدتك... يغري الرجل ويضخم أناه... يمكنك أن تطلقي على هذا أنانية أو رجعية... كما اعتبره أنا بكل صراحة... لكن مثل هذه النساء غالباً ما تطلق عند الرجل غرائز قديمة ونزعة مستميتة لحمايتهن بكل ما أوتي من قوة.»

«لكن بطلات رواياتك غالباً ما يظهرن رقيقات جداً.» اعترضت هيزل من دون تفكير، ثم ما لبثت أن احمرت وجنتاها بشكل فاضح عندما علمت بأنها قد أخطأت في النظر مباشرة إلى عينيه، في حين كان هو أيضاً يبادلها هذه النظرات باهتمام ورقة، مما جعلها عاجزة عن اغماضهما أو إبعادهما عنه.

صحح قائلاً: «ليس دائماً، قد أكون حاولت جاهداً، أن لا أخون رغباتي وتفضيلاتي الشخصية. بالتأكيد أشعر بأنه من المفيد لي ككاتب أن أتناول الجزء الأصعب، لأبرهن بأن الرقة لا توجد دائماً في نساء لا يتجاوز طولهن الخمسة أقدام.

«بعد العشاء، هل تسمحان لي بالانسحاب والصعود مباشرة إلى غرفتي، يجب أن أدون بعض الملاحظات؟ كما أن هناك بعض الأفكار طرأت على رأسي مؤخراً وأريد تسجيلها، فضلاً

عن ذلك أنا متأكد من أنكما، أنت وكاتي لديكما الكثير لتتحدثان به.

«لم نتحدث بالأمور المادية لغاية الآن. لكن في الواقع لا أعتقد أنكما ستأوياني على نفقتكما الخاصة. عادة، عندما أقوم بمثل هذا النوع من الأبحاث، أستأجر غرفة صغيرة في مكان ما لمدة ستة أشهر، أو ما شابه ذلك، حتى انتهائي من كتابة المسودة الأولى، وعلي أن أعترف أنه لوهلة، بعد أن تلقيت دعوتك من كاتي للبقاء هنا، كنت خائفاً من كيفية سير الأمور. أما الآن، فإن كل مخاوفي ذهبت أدراج الرياح.»

لم يكن عند هيزل ما تقوله. فاكتفت بالقاء نظرة عتب على كاتي التي ما كان منها إلا أن تجاهلتها وتابعت ثرثرتها. برغم أن طلب سيلاس كان يجب أن يسعدها إلا أنه ولسبب ما، اكتشفت بعد أن استأذن وانصرف وتركها مع كاتي أنها افتقدت فعلياً وجوده معهما، وكان عليها أن تمنع نفسها من الاصغاء إلى وقع أقدامه على السلالم.

مهما يكن. الآن، وبعد أن سنحت لها الفرصة للتكلم مع ابنتها على انفراد، كان عليها أن تستفيد منها وهذا ما فعلته حين سألت كاتي بغضب: «صحيح أني أتقدم في السن، يا كاتي، ولكن ذلك لا يعني أني قد بدأت أفقد ذاكرتي وتغيب عني بعض الأمور. ومع ذلك لا أذكر أنني وجهت الدعوة التي تحدث عنها سيلاس وقرر أن يقبلها.»

ضحكت كاتي وقالت معترفة: «حسناً، يا أمي كان علي أن أغير الحقيقة بعض الشيء.» ثم ما لبثت أن تغيرت ملامح وجهها حين أضافت: «سيلاس رجل محافظ جداً في عدة أمور. لا أدري إذا كان ذلك يعود إلى تقدمه في السن أو شيء من هذا القبيل.»

كانت هيزل ما زالت تفكر بالتعليق الذي أطلقته كاتي على حبيبها المفترض حين تابعت تلك الأخيرة قولها بسرعة: «في اللحظة التي ذكر فيها أنه يقوم بوضع كتاب جديد هنا في تشاير وأنه بحاجة إلى مقر للعمل. ادركت أن مكوثه معنا سيكون فكرة رائعة، ولكني أعرفك.» وتبدلت ملامح وجهها وتابعت: «وأعرف أنك ستمانعين ولن توجهي له مثل هذه الدعوة أبداً من تلقاء...»

قبل أن تكمل عبارتها توقفت والتفتت إلى والدتها مندهشة، وهي ترد عليها بغضب: «أنت على حق، بالطبع لم أكن لأفعل ذلك.»

«هكذا أنت، هل رأيت؟» وتابعت كاتي بخبث متجاهلة عبوس والدتها: «وبما أني متأكدة من أن سيلاس سوف يرفض الحضور من دون دعوة رسمية، لذا...»

علقت هيزل بحزم: «كذبت عليه؟»

امتلأت عينا كاتي ببراءة مصطنعة وتابعت: «نوعاً ما. آه، يا أمي، سوف تستمتعين بوجوده هنا. وأنا سوف أشعر بارتياح أكبر لمعرفتي بأنك لست وحدك. أعني، أن المنزل بعيد جداً وأنت هنا وحيدة الآن، وأنا بعيدة...»

سألتها هيزل باستهزاء: «إذاً كل المسألة كانت من أجلي، أليس كذلك؟ كم أنت حنونة.» كانت على وشك أن تفصح لابنتها بما يدور في تفكيرها وتقول لها إنها ما فعلت ذلك إلا لحماية سيلاس ولو ظاهرياً على الأقل من النساء الأخريات. وأن تصرخ في وجهها، إنه ليس لديها أية رغبة لأن تلعب دور الكلب الحارس على حبيبها، ولكن ما لبثت أن اعترفت بضعف، أن الجرأة تنقصها، كي تواجه كاتي هكذا. وانصاف لها كانت تدرك أن ابنتها كانت قلقة عليها وعلى بقائها في هذا البيت الكبير بمفردها.

«حسناً، ولكن مهما كانت دوافعك، إني لا أوافق على الطريقة التي دبرت فيها الأمور وجمعت بيننا، أنت لست إلهاً، يا كاتي. لا يمكنك التدخل في حياة الآخرين بهذا الشكل. وماذا لو نفيت حديثنا عن هذه الدعوة؟»

«آه، ما كنت لتفعلي ذلك. أمي، أنت وفية جداً. مرهفة الحس. سوف تفرحين لوجوده معك هنا، سوف ينسيك نفسك.»

حملقت بها هيزل وتمتمت: «شكراً جزيلاً.»

في الواقع، تساءلت إذا كانت سترى سيلاس على الاطلاق. ذلك أنه ومن خلال خبرتها الشخصية تعرف أن ما لا تتحمله أبداً هو أن يقاطعها أحدهم في شكل متواصل أثناء عملها... لذا كان عليها أن تتفق معه على بعض الأمور مثل تنظيم أوقات الطعام وغيرها من المواضيع العملية. قطعت على نفسها وعداً الآن بأنها لن تزعج سيلاس أثناء عمله، ستشاركه وجبات الطعام إذا أراد هو ذلك، إلا أنها لن تفرض نفسها عليه، لن تهتم به أكثر من اللازم وتغدق عليه عنايتها، لن تقدم له وجبات إضافية أو شراب أو تقطع عليه خلوته. وهو بالتالي عليه أن يتأقلم مع روتين حياتها أو يكون عليه القيام بالترتيبات الخاصة التي تناسبه.

قالت كاتي في محاولة لاستفزازها: «فقط تخيلي كيف سيكون عليه الوضع مع أصدقائك. سوف يطلبن منك تعليقاً عن كيفية العيش في المنزل نفسه مع كاتب شهير.»

أجابتها هيزل باختصار: «لا أعتقد. لدينا الكثير من المشاغل والمواضيع الهامة لنبحثها ونناقشها.» حدجت ابنتها بنظرة قاسية وتابعت: «هل تعلمين ما علي أن أفعله. يجب أن آخذك وأصعد بك إلى غرفة حبيب... سيلاس وأخبره ما فعلت.»

«آه، هيا، يا أمي، لن تفعلي ذلك، هل ستفعلين؟ سيثور علي...»

يثور عليها؟ فكرت هيزل وألقت نظرة قلقة على ابنتها وتساءلت أي نوع من الرجال، هذا الذي يثور على حبيبته؟ جال تفكيرها في صور مرعبة من العنف والظلم.

سألتها بحذر: «إنه لا... لا يمكنه... يمكنه أن يعاملك بشكل مجحف يا كاتي، هل هو كذلك؟»

لقد كانت ابنتها بغض النظر عن كل شيء، ومن وجهة نظرها هي على الأقل، امرأة راشدة وليس عليها بالتالي أن تتدخل في شؤونها وعلاقتها مع سيلاس. وإلى جانب ذلك، لقد كانت بعيدة من أن تمتلك جرأة تدفعها لمعرفة التفاصيل الحميمة التي تدور ما بينهما.

«مجحف؟» بدت كاتي وكأنها انتبهت إلى سؤال والدتها فأجابت بعد تفكير: «لا، ليس حقاً، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار العلامة القاسية التي وضعها على بحثي الأخير.»

إما أن كاتي أساءت فهم سؤالها، أو أن مخاوفها الكثيرة وهمية تماماً. وتمنت بصدق أن يكون الجزء الأخير هو الصحيح. نهضت هيزل عن مقعدها لتنظف الطاولة وتشغل آلة غسل الصحون.

عرضت كاتي قائلة: «دعيني أقوم بذلك عنك، يا أمي.»

كانت الساعة تدق الثامنة عندما نزل سيلاس ووافاهما إلى الصالة. وعندما اقترحت كاتي أن يذهبوا ثلاثتهم في نزهة إلى القرية ليتناولوا شراباً في النادي، اعتذرت هيزل فوراً عن مرافقتهما، بحجة أن لديها عملاً ما، عليها القيام به، فقد شعرت بأنه عليها أن تترك لهما بعض الوقت ليمضياه معاً على انفراد.

قد ترغب كاتي حقاً أن ترافقهما. لكن شكت بأن يشاركها سيلاس شعورها. صحيح أن تعابير وجهه لم تخنه وتظهر ذلك بشكل واضح، ولكن من المؤكد أنه من النوع الذي يجيد حقاً! إخفاء مشاعره. شعرت بالقلق والانزعاج حين رفضت بشكل حاسم تملق كاتي في عدم مرافقتهما.

يبدو أن عشاق هذه الأيام تنقصهم قوة العواطف وعمقها، التي طالما تخيلت حدوثها بين فردين غارقين في الحب، إلا إذا كانت علاقتهما قوية ووطيدة لدرجة أنهما لم يعودا بحاجة للانفراد معاً والاختلاء بنفسيهما.

لغاية الآن لم تنطق كاتي بأي تعليق حول إعطائهما غرفتين متباعدتين. يبدو أنها تقبلت الأمر وكأنه أمراً واقعاً. شعرت هيزل بصداع أليم يضرب رأسها، رفعت يداها على جبينها علّها تزيل هذا الألم.

«هل تشعرين بألم ما؟» فاجأها السؤال فاستدارت لترى سيلاس يراقبها.

«مجرد صداع خفيف.»

«يجب أن ترافقينا. فالهواء النقي قد ينعشك.»

«أنا... أنا تعبة. أعتقد أنه من الأفضل أن أنام باكراً.»

صعدت كاتي جرياً، إلى الطابق العلوي لتجلب معطفها، لسبب ما شعرت هيزل بدموع مفاجئة تحرق جفناها. لقد كان ذلك كله بسبب توترها والصدمة التي تعرضت لها. هذا ما أقنعت نفسها به، هذا هو السبب، وفي الواقع إنها غير معتادة على اهتمام الآخرين بها كما أنها لم تشعر منذ زمن بأنوثتها ورقتها من خلال صوت رجل ما. على أي حال قد يكون كل ذلك من نسج خيالها.

لماذا بحق السماء، قد يكون سيلاس مهتماً بها؟ نعم، لا شك

أنها تتخيل ذلك، فكرت في غيظ وهي تستدير مبتعدة عنه. لقد تحولت إلى امرأة ساذجة، غبية كتلك النسوة المتوسطات العمر. فقد أصبحت خائفة من ركض السنين، بحيث أصبحت تتخيل أن كل رجل يقابلها يبدو نوعاً ما منجذباً إليها.

كان قد مضى على خلودها إلى الفراش قرابة الساعة، عندما شعرت بعودتهما.

شعرت بهما يصعدا الدرج معاً ثم ما لبثا أن توقفا على منبسط السلم بعيداً عدة أقدام عن باب غرفتها.

تآكلها الغيظ وتوترت أعصابها حين سمعت سيلاس يقول لكاتي بهدوء: «ربما يجب عليك أن تلقي نظرة على والدتك، فهي...»

لحسن حظها جاءها جواب كاتي: «لا، بحق السماوات، لا.» من الواضح أن كاتي أساءت فهم سؤاله الذي نتج عن اهتمامه بها، ذلك أنها قاطعته قائلة: «لا، أمي تكره أن يضايقها أحدهم وخصوصاً إذا لم تكن على ما يرام. اضافة إلى أنها قد تكون نائمة الآن. عمت مساءً، يا سيلاس.»

ساد صمت قصير، وحاولت هيزل أن لا تتخيل انهما في عناق، الأمر، الذي لو حدث، لم يستغرق إلا مدة قصيرة جداً. أغمضت عيناها في محاولة لمحو رؤية مؤلمة اعترتها، كاتي وسيلاس متعانقان. سمعت سيلاس يفتح باب غرفته وسمعت صوت أقدام كاتي تبتعدان نزولاً على الدرج.

الآن باستطاعتها أن تنام في هدوء. لكنها، لم تجد لذلك سبيلاً. أمضت الليل كله تتقلب على فراشها، تستسلم لسلطان النوم حيناً لتعود وتصحو أحياناً لتصغي إلى صرير غير متوقع للأرضية الخشبية أو للأبواب.

ما الذي كانت تفعله بنفسها؟ تساءلت والدموع تملأ عينيها. طبعاً إنها تريد أن تحمي كاتي وتحاول أن تجنبها أي أذى، لكن الصور المضطربة التي ملأت دماغها، الأفكار المؤلمة التي تدور بعنف في رأسها ليس لها أي علاقة بتلك المخاوف والعواطف التي تكنها لابنتها.

بدا لها ذلك معيباً جداً وغريب. لم تتخيل يوماً أو تشعر بحاجتها لحبيب يقف بجانبها ويحميها. لكنها الآن تجد نفسها فجأة وبشكل محرج في وضع مقلق، تواجه توقها ورغبتها في رجل ليس في النهاية إلا حبيب ابنتها.

لقد كان ذلك مخجلاً ومذلاً...

الفصل الثالث

طبعاً، وبعد أن أمضت ليلة رمضاء لم تذق خلالها طعم النوم، كان من الطبيعي أن تغرق هيزل في نوم عميق قبل الفجر. إنها تخطت ساعة نومها بفترة.

أحدهم كان يقرع باب غرفتها، هذه كاتي من دون شك، تريد أن تعلم لماذا ما زالت في سريرها لغاية الآن، لذا صرخت: «أدخل.»

كانت ما تزال ترفع رأسها عن الوسادة في محاولة لتحضر نفسها لترك السرير، حين فتح الباب، إلا أنها لم تكن كاتي القادمة... بل كان سيلاس.

قال معتذراً: «آمل بأني لم أوقظك.» وأضاف: «لكني اعتقدت بأنك قد ترغبين في كوب من الشاي.»

حملقت هيزل به وشعرت أن الكلمات قد ضاعت منها، لقد كان يرتدي سروال جينز ضيقاً مع قميص نظيف. شعره كان مصففاً بشكل جيد أنيق، وفي حين كان متوجهاً نحوها، شعرت برائحة الصابون الذكية التي تنضح بها بشرته.

كان يحمل كوباً صينياً مزخرفاً مليئاً بالشاي، وضعه على الطاولة إلى جانب سريرها. ثم مالبث أن سألها: «كيف حال صداعك؟»

نظرت هيزل إليه بسرعة، عن أي صداع يتكلم؟ إنه قلبها الذي يؤلمها ويتمرد عليها وليس رأسها. شعرت بدقات قلبها وكأنها طبول تقرع وصوتها يصم الآذان، وضعت يدها بشكل آلي على قلبها، من فوق الأغطية تحاول تهدئته. «لـ... لقد أخفتني.»

ماذا يحدث بحق السماء؟ لم تكن معتادة على أن يقتحم

غرفتها رجل ما، ليقدم لها كوباً من الشاي، ويسأل عن صحتها. وخاصة رجل مثل هذا الرجل.

انتبهت فجأة لرثاثة قميصها التي كانت فعلياً لكاتي، ولعقدة شعرها التي هدلت، ولأشعة الشمس التي كانت تتسلل من خلال قضبان نافذتها، مبعثرة أشعتها على السرير وعلى وجهها...

تساءلت إذا كان قد حمل لكاتي كوباً من الشاي، وإذا كان يقوم الآن بمقارنة ما بين نضارة كاتي واشعاعها مع شحوبها هي وعدم جاذبيتها في صبيحة هذا النهار.

«قالت لي كاتي بأنك رسامة.» علق محادثاً وكأنه لا يستعجل الخروج.

«ن... نعم... في كتب للأطفال.»

«هل أنت تعملين لدار نشر معينة، في الوقت الحاضر؟»

أخبرته بصدق: «إني على وشك أن أبدأ عند أحدهم.»

زاد عبوسه حين قال: «أليس من غير الملائم لك أن أبقى هنا؟»

تضاربت صراحتها مع وفائها لكاتي، لكن وفاءها تغلب.

«لا، على الاطلاق، إني أتطلع لذلك. أتوقع أن أسأل عنك في المدينة.»

ما بالها بحق السماء. كانت تتصرف وكأنها حمقاء صغيرة.

«أمي.»

رأت كاتي تدخل من الباب فشعرت بالراحة.

«لا أقاطع أي شيء، أليس كذلك؟» رددت كاتي في حدة عند دخولها.

استطاعت هيزل أن تشعر بتورد وجنتيها فاحتجت قائلة بشكل لا واعٍ: «حقيقة، كاتي، أنا...»

«أمازحك فقط، يا أمي.» أكدت لها كاتي وأضافت: «ما هذا! شاي لغاية سريرك. كم أنت محظوظة. لم أحصل على كوب كذلك؟»

«ربما لأنك لا تستحقينه.» أجابها سيلاس بحزم. مما جعل هيزل تحملق به بارتباك. ماذا يحاول أن يفعل؟ أن يجعل كاتي تغار؟ تغار من والدتها؟ هذا سخف طبعاً.

أعلنت بسرعة: «أنا... أنا... أعتقد بأنه من الأفضل أن أنهض.»

وافقتها كاتي: «فكرة حسنة. ما سنفعل اليوم، يا أمي؟ أعتقد أن سيلاس يحب القيام بجولة على المنطقة. أنت تعلمين، كل غوزورث وهذا النوع من الأماكن.»

وافقتها هيزل: «تبدو فكرة حسنة، هل ستغيبان طيلة النهار؟ أم سوف تعودان ساعة الغداء؟»

عبست كاتي قائلة: «حسناً، إن هذا يعود إليك. ما عنيته هو، لماذا لا تأخذين أنت سيلاس في جولة إلى غوزورث؟ أعني، أن هذا الأمر يستهويك أكثر مما يستهويني وأنت تعرفين الكثير عنه كما تعلمين، أنا لست مهتمة بالأماكن التاريخية. إلى جانب ذلك، عندما توقفت في القرية، عرجت على سوزي، وقد طلبت مني أن نتجول هنالك اليوم، ونستطلع الأخبار. أنت لا تمانعين، أليس كذلك يا أمي؟ أعني أنك تحبين الذهاب إلى غوزورث، أليس كذلك؟ كنت دائماً تترددين إلى أي درجة تلهمك، وأنك لن تملي أبداً من زيارتها.»

لم يكن عند هيزل أدنى فكرة عما تقوله. كانت كاتي تنظر إليها وكأن هذه النظرات تتوسلها لكي توافق ولكن لماذا؟ بالطبع إنها تريد سيلاس لنفسها؟ إلا إذا كان قد حصل شيء بينهما... إلا

إذا كان قد وقع خلاف بينهما. قد يكون السبب الترتيبات التي وضعتها هي للنوم. قد يكون سيلاس ألح على كاتي لتمضية الليل برفقته، وتكون كاتي قد اضطرت لأن ترفض لأنها في بيت والدتها. إذا كان هذا هو الموضوع وهي سبب خلافهما. فهي بذلك قد تكون مدينة لابنتها لأن تفعل ما تطلبه منها.

خففت من احجامها وترددها فبدأت غير واثقة: «حسناً إذاً السيد... إذا كان سيلاس لا يمانع بأن أرافقه كدليل، فأنا بالتأكيد أود أن أعود لزيارة غوزورث مرة ثانية.» في أي حال، كانت قد فكرت، بينها وبين نفسها، بأن تزور البيت الكبير ثانية.

صحيح أنها قد وجدت في باحته السوداء والبيضاء وغرفه المريحة وتاريخه العظيم، مصدراً لإلهامها، ولكنها كانت متأكدة من أن سيلاس ليس عنده أي رغبة في زيارته برفقتها. انتظرت متوقعة منه أن يقول لكاتي إن صحبتها هو ما يريد، وإنه سيكون لديه الوقت الكافي لمتابعة أبحاث كتابه الجديد عندما تعود هي، إلى الجامعة، لكن ما أدهشها وكان مبعث الارتباك في نفسها هو استدارته لمواجهتها وقوله باندفاع ظاهر: «إذا كنت تستطيعين مرافقتي، أكون فعلاً شاكراً لك. لقد أخبرتني كاتي أنك حاذقة جداً ومطلعة على التاريخ المحلي للبلدة، أعتقد بأني سوف ألجأ إليك مراراً خلال الأشهر القليلة القادمة. إني فقط آمل أن لا تندمي على عرضك السخي لي باستضافتي.»

أعلنت كاتي مبتهجة: «عظيم، انتهينا من هذا الموضوع. وبما أنه لم يقدم لي أحد كوباً من الشاي فسأذهب لأرتدي ملابسي.»

نظرت إلى الباب في حين كان سيلاس يقف مفسحاً لها المجال لتترك سربها.

حركته هذه جعلت الغطاء ينزلق عن السرير إلى الجانب الآخر

عارضاً، لزيادة قلقها، الجزء الأعلى من جسدها المغطى بما يشبه قميصاً للنوم بلونيه الأبيض والزهري الزاهيين ومزخرفاً برسم كبير لقطة بيضاء. من المستحيل أن يكون قميصاً ملائماً لامرأة ناضجة في مثل سنها، ومع أن كامل جسدها كان مريعاً، فهي لم تعد فتاة في الثامنة عشرة من العمر. غاصت في سريرها في محاولة لالتقاط الغطاء في اللحظة نفسها التي انحنى فيها سيلاس للقيام بالمهمة نفسها، فتلامست يداهما للحظة، وشعرت بالنار تأكل وجنتيها وهي تحاول إبعاد يدها، في حين تخضب وجهها بمسحة قرمزية رائعة عندما نظر سيلاس باتجاهها.

كان على وشك الاعتذار، أو الذهاب، ولكن مهما كانت نواياه، يظهر أنه قد تغافل عن ذلك، في حين اعتراه توتر فاضح جلي، وغير متوقع، مما جعل هيزل تدير وجهها لترى علام كان يركز نظره. حينها، أدركت أنه لم يكن من سواها ليتفرس به، كاشفاً عن انوثتها.

لم تستطع هيزل تمالك رجفة صغيرة اعترتها، نقمت على نفسها، فأغمضت عينيها واستدارت. ومن خلال غطاء وسادتها الرقيقة همست به: «أرجوك، انصرف.»

ظلت ترتعد لفترة طويلة بعد ذهابه.

كيف بحق السماء، يمكنها الآن، ارتداء ملابسها وموافاتهما إلى الطابق الأرضي، والتصرف وكأن شيئاً لم يكن؟ وماذا لو اختار سيلاس إخبار كاتي بالذي حصل؟ تأوهت بألم ويأس، احتقرت نفسها وتمنت البقاء، مغمضة العينين وملتفة على نفسها مثلما هي الآن. لكنها لا تستطيع القيام بذلك. فهي امرأة ناضجة وليست طفلة ولو أنها كانت تتصرف كواحدة منهن.

نزلت عن سريرها وتوجهت نحو غرفة الحمام الصغيرة، حيث

استحمت ثم ارتدت تنورة سوداء وقميصاً أبيض من قماش سميك، حرصت على أن تقفل كل أزراره، فيما لو جسدها خانها ثانية، لن يتمكن أحد غيرها، بعد الآن من التنبه للوضع.

بينما كانت تلتقط منشفتها المبللة وقميص نومها الرقيق من أرض الحمام، قطعت على نفسها وعداً بأن أول عمل ستقوم به صباح يوم الاثنين القادم هو أن تنزل إلى السوق وتشتري قميصاً للنوم يلائم عمرها وعمر من هن في مثل سنها. قميصاً ناعماً ولكن يناسب امرأة متوسطة العمر. قميصاً لا يكشف انفعالاتها الداخلية وتمرد جسدها، مهما كان سيلاس قريباً منها. إنه شيء سخيف فعلاً. لأن من جراء ما حصل هذا الصباح، سيكون احضار كوب شاي لها، إلى السرير، آخر ما يريد فعله مستقبلاً. وحتى هي، لن تسمح بتكراره. في الحقيقة، الخطأ يقع عليه وحده في كل الأحوال. ليس له أي حق في أن يقتحم غرفتها الخاصة بها. ليس له الحق أبداً. حتى ولو كان حبيب كاتي، هذا لا يعطيه الحق في أن يدخل إلى غرفتها ويجلس على حافة سريرها كما فعل. فكرت بعد ذلك وبشيء من الحزن بأن ما فعله كان تفخيماً لها، شيئاً مميزاً، مما جعلها تشعر بأنها نفيسة وغالية ومدللة ومحظوظة كون رجل ما جلب لها الشاي إلى سريرها. شعرت بحزن عميق يأكل قلبها، ذلك لأنه لم يقم أي رجل سابقاً بمثل هذه الخطوة معها.

أوقفي ذلك، حذرت نفسها قائلة: يجب أن تتوقفي حالاً والآن. ليس لها حق امتلاك مثل هذه الأفكار، ليس لها الحق أبداً.

عندما وصلت الطابق الأرضي، لاحظت، ليس فقط المائدة مجهزة للفطور بل أن المطبخ تفوح منه رائحة القهوة الشهية التي تدغدغ الشعور. تنشقتها بامتنان وقالت لكاتي التي كانت تهم

بفتح خزانة الحائط: «أنت رائعة، شكراً لأنك بدأت بتحضير الفطور، لا أدري ماذا أصابني هذا الصباح، أعتقد أني استغرقت في نوم عميق.»

كانت تصلي كي لا تلتفت كاتي إليها وترى مظاهر التعاسة والذنب التي تملأ عينيها. سيلاس حبيب ابنتها وهي بتلك الأفكار تخون ابنتها الوحيدة، بخوفها منه وشعورها المطلق بوجوده وإثارته لها.

قالت لها كاتي: «لا تشكريني.» أضافت وهي تفتح خزانة الحائط لتلتقط بعضاً من خبزها المفضل: «كانت هذه فكرة سيلاس. ليس لديك أدنى فكرة كم هو محافظ وتقليدي. لقد قال إنك قد أفرطت في تدليلي لمدة طويلة وقد حان الوقت لكي يدللك أحدهم.»

لم تستطع هيزل تمالك الاحمرار الذي خضب وجنتيها وفغرت فاها عند سماعها هذا التعليق.

بحق السماء ما هي اللعبة التي يلعبها سيلاس؟ لم يكن من النوع الذي يشعر بعدم الأمان مع فتاته، فيلجأ لمثل هذه الألاعيب الدنيئة. ولكن رجلاً مثل سيلاس، يحاول إثبات ذاته من خلال اصطحابه فتيات أصغر منه سناً، قد يعاني فعلياً من مشكلات عاطفية.

كذلك من ناحية أخرى يبدو أنه رجل ناضج جداً، رجل قادر على السيطرة على نفسه وعلى من حوله.

قد يكون كذلك، قد يكون رجلاً من أولئك الرجال الذين هم بحاجة دائمة للسيطرة على عواطف الآخرين وذلك عن طريق اصطياد الفتيات الشابات بدلاً من نساء في مثل عمرها. فهو لن يكون أبداً قادراً على فعل ذلك. حسناً، على الأقل ليس مع من يضاهيه معرفة ونضوجاً.

سألت كاتي في محاولة منها للسيطرة على أفكارها الشاذة: «أ... أين سيلاس؟»

«نزل إلى القرية لشراء بعض الأوراق. لقد أخذ السيارة وبالتالي لن يتأخر.»

«م م... أتقومين بتحضير الخبز المحمص؟» سألتها كاتي وهي تتناول رغيفاً من علبة الخبز ثم أردفت قائلة: «كما أني لن أمانع إذا حضرت لي بعض البيض المسلوق.»

«إذاً، انهضي وحضريه بنفسك. لقد أفسدت هذه الفتاة الصغيرة، أنت تعلمين.» توجه سيلاس نحو هيزل وهو يدخل المطبخ وقال: «أنت اجلسي.» أمرها قائلاً وهو ينزع سكين تقطيع الخبز من يدها من دون أن يعطيها فرصة لتعترض.

فعلت ما أمرها به وكأنها مخدرة. بحق السماء ما الذي يجري؟ سيلاس كان يعامل كاتي كطفلة مدللة وليس كحبيبة. كانت هيزل تدرك أنها أغرقت في تدليل كاتي، ولكن والدها كان متطلباً جداً، خصوصاً بعد تعرضه للصدمة الأخيرة. لقد كان من النوع التقليدي جداً وكان من المسلم به، أن يحتاج لامرأة تجلس عند قدميه وتنتظر اشارة من يده، لتلبي كل طلباته. وبشكل أو بآخر تعودت هيزل على أن تعامل كاتي كما عاملت والدها، ومع ذلك تأكدت من أن كاتي كانت قادرة على الاهتمام بنفسها وبأمور المنزل إذا أرادت.

قالت كاتي: «إني آسفة، يا أمي. سيلاس على حق، لقد أفسدتني حقاً. آه، عظيم... خبز من صنع البيت.» صرخت كاتي ببهجة عندما رأت قطعة الخبز في يد سيلاس. «عظيم. أمر واحد أشتاق إليه في البيت وهو طهيك. إن أمي لطاهية ماهرة، يا سيلاس. في الواقع إنها رائعة في كل شيء.» أضافت كاتي بعد

أن حضنت والدتها وطبعت قبلة ناعمة على رأسها الجميل: «في المناسبة، هل أستطيع أن آخذ سيارتك؟ أعني أنك لست بحاجة لها، أليس كذلك؟ خصوصاً إذا كنت ذاهبة مع سيلاس، وأنا فعلياً بحاجة لها كي أقل سوزي.»

أومأت هيزل إيجاباً بعد أن لحظت أن ابنتها تتجهم.

«لكن انتبهي جيداً في طريقة قيادتك، ولا تستخدمي كل البنزين الموجود فيها وتعيديها لي وخزانها فارغ، و...»

«أعيدي المقعد إلى الوراء عندما تخرجين.» قالت كاتي بإلفة ثم أضافت ببهجة: «ليس ذنبي إذا كان لدي ساقان طويلتان؟ حسناً حسناً... لقد سمعت ما قلت.»

سألتها هيزل قلقة: «سمعته، لكن هلاّ أعرته أدنى اهتمام؟»

«جواب هذا السؤال، هو بالطبع لا، خصوصاً إذا كانت كاتي شبيهة بجيلها.» رد سيلاس في حين كان ممسكاً بطبق لذيذ شهي مليء بالخبز المحمص. «أبناء اخوتي أربعة في ريعان الشباب.» و أضاف بلكنة خاصة: «أبناء أختي اثنان، توأم في الثامنة عشرة من عمرهما. ولأختي الثانية، فتاة في الخامسة عشرة من عمرها وشاب في التاسعة عشرة. أعتقد أننا جميعاً قد مررنا بفترة كنا فيها أنانيين جداً. لكن وبطريقة ما ومع تقدمنا في السن نفشل في تذكرها. على كل حال، أعتقد بأنه في فترة النضوج نفقد صبرنا، ونغضب بسرعة من الشباب.»

قالت كاتي مشاكسة: «فقط استمعوا الجدي هناك.» ثم أضافت بفضول: «لم أكن أعلم أن لديك أبناء أخت. هل لديك غيرهم أقارب؟» سألته وهي تبسط الزبدة على قطعة خبز وتلعق ما تبقى منها، على أصابعها. فكرت هيزل بأن الكل لا يستطيع إلا أن يعجب بالطفلة الصغيرة التي ما زالت قابعة داخل ابنتها الفاتنة.

«ليس تماماً، أمي وأبي توفيا، لدي بعض الأقارب من أبناء عم وخال كما عندي عمة أو ما يشبه. لكن هذا كل شيء.»

«من الغريب أنك لم تتزوج أبداً.» علقت كاتي متجاهلة نظرة اللوم في عيني هيزل. يبدو أن مراعاة شعور الآخرين ليس مهماً في العلاقات الحديثة.

المضحك في الموضوع أنها عندما علمت فارق السن ما بين سيلاس وابنتها تملكها خوف يائس على كاتي وحاولت حمايتها. ولكانت قد رحبت بهذه الطعنة لغروره. ولكنها خلافاً لذلك تشعر أنه هو من يجب حمايته. وجدت نفسها تعض بقوة شفتها العليا التي ما زالت منتفخة من آثار العض، البارحة، لتمنع نفسها من الاعتراض على فظاظة ابنتها.

«حقاً؟ أعتقد بأني لم أقابل قط الشخص المناسب في الوقت المناسب. عندما كنت شاباً لم أفكر أبداً بالزواج، فقد كان لدي العديد من الأمور التي أريد أن أحققها أولاً، قبل أن أربط نفسي بزوجة وعائلة. بعد ذلك... في ما بعد... حسناً، أعتقد بأنه كما يقال تزداد مشاغلنا مع تقدمنا في السن وأحياناً التردد والاحجام قد يكونان في مصلحتنا.»

أهذا سرد للواقع أم تحذير مبطن لكاتي، ألا تفكر بأمور مثل الديمومة أو الالتزامات، أو الزواج؟

كرهت نفسها للراحة التي شعرت بها، لكنها حاولت اقناع نفسها بأن هذه السعادة وتلك الراحة سببهما قلقها على كاتي وليس له أي معنى آخر.

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء عندما استعدوا للذهاب. حدقت هيزل حين شاهدت كاتي آتية، مرتدية سترتها الواسعة

ذات الألوان الزاهية وبنطال جينز التصق جيداً بساقيها الطويلتين الرشيقتين، بنطالاً يضاهي بوضوح سترتها وبدلتها الرياضية القديمة، لكن وبشكل ما، ما زال جمالها يصعق من ينظر إليها.

لم تكن هيزل تتمتع بربع ثقة كاتي بنفسها وهي في مثل عمرها. ماذا تعني وهي في مثل سنها؟ سخرت من نفسها... فهي الآن وبعمرها هذا لا تتمتع بربع ثقة كاتي بنفسها. حاولت باستياء مقارنة زي كاتي مع ثيابها الداكنة اللون.

لقد بدت غبية ومضجرة، عصفوراً باهت اللون يقف بجانب طاووس استوائي زاهي الألوان.

هل كان سيلاس يقوم بهذه المقارنة أيضاً، ويؤنب كاتي بينه وبين نفسه لأنها هجرته وتركته لرفقة والدتها؟ ارتعشت بشكل واضح وكانت على وشك اعلان رفضها مرافقته، إنما تربيتها والأفكار التي زرعها فيها كل من والدها والسيدة ميدوز منعتها من القيام بهذه الخطوة.

إذا كان سيلاس قد أزعجه تمرد كاتي وتخليها عنه، فإنه بالتأكيد، لم يكن في وارد إظهار هذا الانزعاج.

كل دلائل الطقس تشير إلى أنهم سيواجهون شتاء مبكراً. وبالتأكيد بعد صيف حار، لفحة الصقيع المفاجئة والنسيم البارد لاقاهم في حركة غير ترحيبية في البداية. لكن هيزل منذ صغرها تحب فصل الخريف. وتتفاءل به. لقد كان فيه شيء مميز يبعث القوة، إن في نسيمه الصباحي البارد أم في سمائه الزرقاء الشاحبة، أو شمسه الشاحبة التي ترسل أشعتها الملونة وكأنها بذلك تقوم بغسل تلك المساحات الشاسعة من ألوان

الصيف الزاهية. قريباً تلك التلال البعيدة سوف يغمرها الثلج مع بدء تساقطه، قريباً آخر الوريقات سوف تسقط تاركة تلك الأشجار عارية باردة.

«برد. الجو بارد.» تذمرت كاتي وهي ترتجف حين أصبحت في الخارج وأضافت: «وداعاً أيها الصيف.»

«الصيف!» علق سيلاس وهو يراقب كاتي تدخل سيارة هيزل الصغيرة: «لماذا لا يستطيع الشبان تقدير الأمور الجميلة حقاً في هذه الحياة؟ شخصياً أفضل هذا الفصل من السنة حيث تتعرى الطبيعة لتظهر على حقيقتها. مما يضفي عليها خشونة وكبرياء ما تكاد تلاحظهما في الصيف.»

كأنه عبّر عن شعورها وتفكيرها بكلماته هذه، مما جعلها تلتفت إليه وتمنحه ابتسامة دافئة، من دون أن تعي كم غيّر فرحها المفاجيء من ملامح وجهها، فقد بددت توترها وتماسكها اللذين طالما حافظت عليهما لتحمي نفسها، وحلّت مكانها امرأة شابة رقيقة بحيث تبدو أصغر سناً وأكثر براءة من ابنتها.

راقبها سيلاس وهو يتساءل، هل هي اختارت عمداً أن تخفي نفسها، أن تموه نفسها وتختبيء خلف أفكارها المأسورة. وأن تقمع شعورها وراء حواجز وضعتها ضد من هم من جنسه، أم أنها قد وقعت ضحية لا واعية لعادتها في القيام بذلك.

عندما أخبرته كاتي للمرة الأولى عن بيتها، عن أمها ومدى رقتها ووداعتها، تردد قليلاً في قبول دعوتها له ومواجهتهما معاً، ولكن الآن...

راقب كاتي وهي تنطلق بالسيارة ثم استدار متفرساً بهيزل التي كانت تراقب سيارتها تبتعد، ويغلف وجهها تعبير غريب من الحنان والشوق.

«أعتقد بأنه عليك إرشادي.» قال ذلك وهو يفتح لها باب سيارته الأمامي ثم أضاف: «كم المسافة التي تبعدنا عن غوزورث؟»

«حوالى العشرة أو الاثنى عشر ميلاً.»

استدارت هيزل لترى ما حولها في حين غرقت في المقعد الجلدي الوثير متسائلة بفضول، كيف سيكون عليه الأمر إذا امتلكت سيارة في هذه الفخامة؟

«إنها سيارة جميلة.» علقت هيزل في حين كان سيلاس إلى جانبها يهم بتشغيل المحرك.

«أجل. إنها تعجبني جداً، ولو كان ثمنها باهظاً، ولكن عندما أقوم بأبحاثي أكون بحاجة لسيارة أستطيع الاعتماد عليها وبالتالي أستخدمها في رحلاتي الطويلة، لذا أمر كهذا، ضروري.»

ما كادا أن يصلا إلى تقاطع صغير للطرق، حيث كان عليه أن ينعطف باتجاه غوزورث، حتى أرشدته هيزل إلى الطريق المناسب.

«ما الذي جعلك تقرر وضع كتابك الجديد في تشيشاير؟» لم. يكن عندها أية فكرة حول وقع سؤالها عليه، هل سيرحب به؟ لقد سمعت في فترات سابقة أن الكتّاب عادة مزاجيون جداً في ما يتعلق بهذه الأمور. لكن الطبع الحاد كان آخر صفة يمكن أن تطلقها على سيلاس، فقد بدا قادراً على ضبط ردات فعله، واثقاً من نفسه ومن أهدافه، ولكن شكوكها ما لبثت أن عادت إليها. لو كان ناصحاً راشداً، كما كان يبدو لما كان بحاجة لدعم رجولته وذلك عن طريق اختياره صديقة بعمر ابنتها.

«لقد بدأ كل شيء مع احدى شخصيات كتابي الأخير، فارس نبيل

تحت اسم هوغو دي لويس، شخصية وهمية تتعلق بأمير تشستر...»

«أجل، اتذكره.» قاطعته هيزل بحماس وأضافت: «لقد كانت شخصيته مرسومة جيداً بحيث أني وجدت نفسي متشوقة لمعرفة المزيد عنه. والآن أنت بصدد وضع كتاب جديد عنه؟ هذا رائع.»

توقفت فجأة بعد أن لاحظت نظرة الاهتمام التي كان يوجهها إليها، احمرت بشرتها خجلاً.

«عندما أخبرتني كاتي بأنك تقرئين رواياتي، اعتقدتها تمدحني فقط. لكن كما أرى كنت مخطئاً. أجل، إني أوافقك الرأي. لقد وجدت هوغو شخصية معقدة جداً في تركيبها، تخطت ما كنت قد رسمته لها، ولأكون حقاً صادقاً لم أكن أنوي البدء في عمل جديد بهذه السرعة. لكني أغرقت نفسي ببعض الدراسات في الجامعة، فوجدت ما يلائم هوغو. وكان علي إيجاد مكان أقيم فيه للبدء بأبحاثي. قمت ببعض الأبحاث حول هذه المنطقة. أما الآن فأنا بحاجة لأن أبدأ بعمل جدي. وقد فكرت بأن أجعل مقر هوغو مماثلاً لمنزل غوزورث.»

تبادلا الحديث لدقائق عدة قبل أن ترشده هيزل وللمرة الثانية إلى الطريق. بعدها وكأنهما خضعا لسحر الطبيعة، التزما الصمت وتمددت هيزل، مسترخية على مقعدها لتتمتع بروعة المناظر الجانبية، والمقعد المريح في السيارة.

عندما وصلا إلى غوزورث لم تكن مزدحمة فالمصطافون قد ذهبوا، وقد بدا أنهما حصلا على البيت وجنانه لنفسيهما.

خلال تنقلهما الصامت من غرفة لأخرى، تمتعت هيزل برؤية غرف وأشياء مألوفة لديها، في حين كان سيلاس يتعرف عليها للمرة الأولى. كانت تدقق بمحتويات المنزل وتخضع لسحره كما كانت تفعل في كل مرة تزوره.

بعد أن زارا كل أرجاء الطابق العلوي، في صمت شبه تام، تمتمت في تردد: «إنه ليس ببيتاً واسعاً، قد يكون لديك أفكار أخرى في رأسك. يمكننا...»

أجابها بهدوء: «إنه مثالي. وأنت الرفيقة المثالية لمشاركتك فرحة الاستمتاع به. قليلون هم الأشخاص الذين يتمتعون بموهبة الصمت والخضوع لرهبة الأماكن والأشياء التي تعبّر هي عن نفسها.»

«أحياناً أشعر بأني مملة جداً.» أعلنت هيزل بارتباك، عاجزة عن اخفاء ما يعتمل في قلبها بعد سماعها تعليقه وأضافت: «يبدو أني لا أعرف أبداً بماذا أحدث الآخرين. كاتي تقول إن سبب ذلك هو وحدتي الدائمة.» تغيرت ملامح وجهها وتابعت: «لا أعرف الكثير حول ذلك...»

«أنت لست مضجرة على الاطلاق.» قاطعها سيلاس بحزم وتابع: «المضجر هو من يبدأ بالثرثرة إلى ما لا نهاية ويتحدث عن لا شيء إلى أن تشعرين بأنك سوف تصابين بالصمم.»

كانا على وشك النزول على السلالم، واقفين معاً في تلك المساحة الصغيرة المغلقة، شعرت هيزل، وعلى الرغم من أن زوجاً آخر يمكن أن يمر بينهما، بأنها كانت قريبة جداً من سيلاس.

شعرت بحس خطير من الترقب، من الإثارة، يجري في عروقها ويشد عضلات جسدها ويغرقها في توتر مقلق.

سمعت نفسها تقول بصوت متشنج أجش: «أعتقد أنه من الأفضل أن ننزل. ما زال أمامنا الطابق الأرضي لزيارته ومن بعده الحدائق.»

«أجل.»

الفصل الرابع

«شكراً لانك جئت بي إلى غوزورث.»

كانا يتنزهان خارجاً في الحدائق، ثم ما لبثا أن توقفا على منحدر صغير ليتأملا باعجاب منظر البيت الكبير الجاثم بجلال وهيبة على جرف كبير تحت نظرهما.

«إني أحب المجيء إلى هنا. تجرى في الصيف الاحتفالات الموسمية بالقديسين جيلبرت وسوليڤان، بالإضافة إلى كرنڤال يستخدم الجنان الفسحة المحيطة بالمنزل. ليضم العديد من الألعاب. يأتي الناس باكراً للتنزه على العشب عندما يكون الجو جميلاً.»

«أستطيع تخيل ذلك.»

نظرت إليه هيزل نظرة سريعة، نظرة شك، متسائلة: هل كان يسخر منها؟ هل يقارن نمط حياتها بنمط حياته: يتهكم عليها ويعتبرها امرأة غبية متوسطة العمر، حياتها موحشة جداً ومملة بحيث أن مجرد أمسية احتفالية بسيطة أصبحت شيئاً بغاية الأهمية والإثارة، وعلى ذلك، يمكنه تفسير لهفتها على هذا الحدث. لكن عندما نظرت إليه لم تستطع أن تقرأ في عينيه إلا تعبيراً مخلصاً وصالحاً. لكن حتى ذلك...

«كاتي تكره هذه الاحتفالات، المرة الأخيرة التي رافقتني فيها، لم تتوقف عن التذمر لأن البعوض قد افترسها.»

«أدرك هذا الشعور، لقد اختبرت بنفسي مثل هذا الموقف المضجر والباعث على التوتر عندما ارتكبت أكبر حماقة في

حياتي ورافقت أبناء إخوتي إلى احتفال موسيقي صاخب.»

«كاتي تحب موسيقى الروك الصاخبة.» أخبرته هيزل بتحد.

«أتوقع ذلك. وأنا في مثل عمرها كنت أحبها، لكنها سوف تنضج. كلنا نفعل.»

ماذا يقصد في ذلك، أنه يتوقع منها أن تنضج؟ بالطبع يجب أن يكون على معرفة بميول كاتي، ما تحب وما تكره؟ بالطبع كان من المستحيل عليه أن لا يلاحظ تعلق كاتي بالموسيقى الرائجة حديثاً، الموسيقى الصاخبة التي حقاً قد تؤدي إلى الصمم؟ لكنه كصديق لكاتي وحبيب وجب عليه معرفة ميول كاتي وهواياتها. لكن هل كان رجلاً لا يهتم بحبيبته وحياتها طالما هي خارج السرير؟

شعورها رفض تلقائياً تفكيرها. بسبب... أو هكذا أقنعت نفسها... لأنها لا تستطيع تحمل مجرد التفكير بأن طفلتها الجميلة والذكية كاتي غبية، وبحاجة إلى رجل لدرجة تسمح فيها لنفسها بأن تتورط مع أي رجل حتى ولو كان يعاملها بهذه القسوة.

لا، هذا بالاحرى دورها هي. هي من كانت تنقصها خبرة، تنقصها المعرفة والثقة بالنفس، وبالتالي قد تقحم نفسها بمثل هذه العلاقة. ليس لأن لديها النية في التورط في علاقة عاطفية أو حميمة، أو حتى علاقة عابرة مع...

ارتجفت قليلاً. أفكارها ومشاعرها كانت تدور بسرعة وتخرج عن سيطرتها.

«الطقس بارد؟ إنها غلطتي. لقد احتفظت بك طويلاً على أعلى هذا التل.»

نفت ذلك مبتسمة، قبل أن تستطيع تبين جواب قلبها المجنون

الذي يعلن أنها حتى ولو كانت تشعر بالبرد فإن ابتسامة سيلاس الدافئة لا بد وأن تبدده.

كانا يقفان متقاربين جداً، مجرد خطوة صغيرة يقوم بها أحدهما كانت كافية لتجعل جسديهما يتلامسان ويسري خلالهما ذلك التيار، وبالنسبة له يكفي أن يرفع ذراعه ويضعها حول كتفيها، يكفي أن يضمها ويديرها لمواجهته. ثم...

غصتها ولهاثها جعلاه يلتفت إليها ويتأملها بعبوس. للحظة شعرت بأنه قد نظر حقاً إلى قلبها وقرأ ما كانت تحاول بيأس اخفاءه.

لقد كان حبيب ابنتها، ذكّرت نفسها بحزن، مبتهلة بصمت لنجدة من ينقذها. لأحد أو لأمر يساعدها لتجاوز هذا الصراع الذي يدور فيها بجنون ويجعلها تفقد السيطرة على ذاتها.

حاولت أن تتخيل كم هو مخجل ومذل لها ومؤلم ومحبط لكاتي أن يكتشف سيلاس ما كان يدور في خلدها ويخبر ابنتها به. قد يكون لكاتي الحق بعد ذلك في أن تشعر بالصدمة والاشمئزاز منها. هي نفسها قد شعرت بهذه الأحاسيس وأكثر.

لم تستطع أن تفهم السبب، وبعد كل هذه السنين ومنذ موت جيمي وعلى الرغم من توقها في بعض الأحيان، علاقة عاطفية مع رجل يحبها ويدللها، إلا أنها لم تجرب مرة واحدة أي شعور كالذي يعتريها الآن. شعور حاد، ماضٍ، أليم يوقظ في نفسها غريزة حسية نكرة، وأسوأ ما في الأمر أن شعورها هذا هو لهذا الرجل من دون كل الرجال.

هل لأنه حبيب كاتي؟ قد تكون، في بعض الأماكن المظلمة من نفسها، في بعض زوايا روحها تحمل حسداً وحقداً لابنتها؟

ارتجف قلبها للفكرة برعب حقيقي خانق. عرفت غريزياً بأنه لم يكن كذلك. لكن في تلك الحالة، ما هو التفسير الصحيح؟

قد يكون سنها... الهرمونات في جسدها؟ نظريات موحشة وأفكار غريبة مزقت رأسها. لقد قرأت مقالة في مجلة محلية أن مع اقتراب المرأة إلى سن اليأس تميل إلى اعتناق بعض التصرفات الغريبة الشاذة. وهي الآن بغض النظر عن كل شيء في السادسة والثلاثين.

«هل أن معرفتك بالتاريخ المحلي للبلاد يمتد ليشمل مكاناً ما، نستطيع تناول طعام الغذاء فيه؟»

كان عليها أن تعيد هذا السؤال البسيط أكثر من مرة في مخيلتها. ما معناه؟ حملقت به بعينين ملؤهما الرعب والخوف، مما دفعه لأن ينظر إلى وجهها بقلق قبل أن يسألها برقة: «ماذا هناك؟ هل من خطب؟»

لقد كانت تعتقد بأن المودة بين الرجل والمرأة تبدأ بالملامسة الجسدية، لكنها كانت مخطئة، أدركت هيزل، كما أدركت كل ذرة من جسدها أن أحاسيسها تستجيب بعنف مع نبرة صوته، وكأن إيقاع وحرارة ورجولة نبرته، وضعت شباكاً خفية حولهما وسجنتهما معاً.

«أنا... أنا... أعتقد بأن كاتي سوف تتساءل عن مكان وجودنا.» هذا كل ما استطاعت أن تنطق به.

شعرت بألم في حنجرتها. لقد كانت تعلم أن داخلها يرتجف من الصدمة والعاطفة. لم تعش في حياتها مثل هذا الشعور ولم تختبره من قبل حتى عندما علمت أنها حامل، وبالطبع ليس أيضاً عندما كانت هي وجيمي...

«لا أعتقد ذلك. لقد لمحت إلى أنها قد تقضي معظم النهار برفقة

صديقتها. قد أكون لا أعلم الكثير عن الفتيات الشابات، لكن يبدو لي أنهن متى التقيتا، يجدان الكثير من المواضيع لبحثها.»

«أنا...» لماذا لا تقول له بكل صراحة وعزم إنها لا تريد تناول طعام الغداء معه؟ لماذا لا تذكّر نفسها وتذكره بكاتي؟

لماذا تتصرف وكأنها غبية حمقاء؟ فقط لأنه دعاها للطعام، هذا لا يعني أنه يريد...

ماذا؟ يريد أن يراودها؟ طبعاً لن يفعل. إنه فقط يتصرف بتهذيب. فهي، قبل كل شيء، والدة كاتي، وإذا لم يكن قد اكتشف لغاية الآن مدى تأثيره عليها فان تصرفها الحالي، رفضها تناول الطعام برفقته وسلوكها كابنة تسعة عشر ربيعاً، سوف يكشف له قريباً جداً الحقيقة.

«أنا... فكرة الطعام ليست سيئة.» سمعت نفسها تقول بصوت أبح، في حين كان قلبها يدور في قفصها الصدري وكأنه كرة تتقاذفها الرياح. ولم يكن هناك شيء تقوله لنفسها حول التربية الحسنة أو التصرف بنضوج، يمكنه أن يخفي رعشة الإثارة التي رفضت أن تستجيب لدعواتها اليائسة.

انتهى المطاف بهما إلى تناول طعامهما في مطعم هادىء، يقع في منطقة ريفية جميلة، تبعد عدة أميال عن غوزورث، حيث جلسا إلى طاولة تطل على منظر رائع وكان الطعام شهياً ولذيذاً.

حين رمق سيلاس ساعة يده وأعلن بأسف أنه حان وقت الذهاب لم تستطع هيزل أن تصدق بأن قرابة الساعتين قد انصرمتا بهذه السرعة.

كان لديه طريقة خاصة في جذبها من تحفظها، ودفعها للتكلم عن نفسها. كما أخبرها عن نفسه، مما جعلها تستنتج كم كانت بحاجة لمثل هذه المثيرات العقلية، كم كانت بحاجة لأن تكون

برفقة رجل جذاب ومسلٍ. يبدو أنه أيضاً يراها جذابة ومسلية بالقدر نفسه.

لكن كل هذا هراء، طبعاً. يجب أن يكون كذلك. حذرت نفسها عند خروجهما من المطعم. إنه فقط يحاول أن يكون مهذباً. هذا كل شيء. وهي كما الطفلة الغبية. كانت تبالغ في ردة فعلها. المشكلة أنها كانت غير معتادة على رفقة الرجال وبالتالي فقد نسيت كيفية التصرف برفقتهم.

«هل تودين القيام بنزهة قصيرة قبل العودة؟» سألها سيلاس مشيراً إلى ممر صغير للمشاة بمحاذاة، موقف السيارة. وأضاف: «أعتقد بأن الهواء النقي وبعض التمارين قد تساعدني في عملية هضم الطعام.»

وافقت بصمت بهزة من رأسها.

كان الممر يؤدي إلى درب ضيقة، يحيط بها سياج مرتفع ومتصل بسلم خشبي. ينحدر بجانبه حقل جميل ليصل إلى، ما يبدو عن بعد وكأنه جدول صغير.

لقد بدا السلم الخشبي بالنسبة لهيزل، من الصعب اجتيازه. إحدى دعائمه مفقودة وفي حين كانت تحاول تخطيه لعنت قصر قامتها ألف مرة، لو أن أحداً بطول كاتي يريد اجتيازه لكان قام بذلك بسهولة، بينما هي، بقامتها الصغيرة، كان عليها أن تتسلقه بطريقة مشينة وغير لبقة مثل سرطان البحر.

كانت على وشك العبور عندما لاحظ سيلاس ترددها فعرض عليها: «دعيني أساعدك.»

قبل أن تعترض أو حتى أن ترفض كان قد استدار وحملها بسهولة وكأنه يرفع ولداً صغيراً، على الرغم من سنه. لقد كان قوي البنية، فكرت هيزل وهو يضعها أرضاً.

مع أن لمسته لم تكن تحمل أي مغزى، فقد شعرت هيزل وعلى الرغم من سماكة ثيابها، بضغط راحتي يديه إلى جانب صدرها، وبشدة انفعالها وتوترها نتيجة لضغطه هذا. وشكرت حظها لأنه لا يستطيع أن يرى ما يعتمل في داخلها.

تقلصت معدتها نتيجة خجلها وشعرت بمرارة في فمها. في اللحظة التي وضعها فيها على الأرض، تنحت بعيداً عنه بسرعة، آملة بأن يفسر انخطاف لونها نتيجة لحركة النسيم البارد.

عاجزة من أن تحمل نفسها على العودة إلى طبيعتها، لجأت إلى سؤاله عن عمله وهي تحاول أن تلهي نفسها عن انجذابها إليه.

أخبرها كم كان تواقاً لأن يصبح كاتباً ولكن كقارىء متعمّق كان مدركاً للمصاعب التي قد تواجهه في حال امتهن التأليف. وكيف اتخذ قراره بأن الكتابة لن تكون إلا هواية يحبها ويلجأ إليها، وكيف جمعته الصدفة مع ناشر مشهور قدير، وبعد عدة لقاءات بينهما، تشجع وعرض عليه المسودة الأولى لعمله.

قال لهيزل مبتسماً: «لقد كنت محظوظاً.» فاعترضت بصورة آلية متناسية تحفظها وخجلها لتؤكد له بحماس أنه كان من المؤلفين الذين أعجبت بهم وبقدرتهم، وأن الخلفية التاريخية التي تمتعت بها كتبه كانت قيّمة، تدفع الفرد لقراءتها والتمتع بها.

شعرت أنها ربما قد تكون بالغت بردة فعلها وحماسها، توقفت فجأة وقالت بتردد: «أعتقد بأنك قد تعبت من سماعك هذه التنويهات.»

«أبداً، وخصوصاً عندما تكون حقيقة، وليست تملقاً.» أكد لها بدفء وتابع: «مع ذلك عليّ أن أعترف بأني قد أشعر بالاحراج عندما اتلقى ثناءً لا أستحقه.»

«بل أنت تستحقه.» أصرت هيزل ووقفت ثم استدارت لتنظر إليه وتابعت: «أعتقد أن كاتي قد ذكرت لك مدى استمتاعي بقراءة رواياتك.»

«نعم، لقد ذكرت ذلك.» وافقها بجدية وأردف: «لكني اعتقدت أنها كانت تحاول استرعاء انتباهي، فلم أعلق أهمية على الأمر.»

لم تستطع هيزل أن تفهم ما قصده في حديثه فترددت.

«إني شاكر حقاً لضيافتك وسماحك لي بالمكوث معك.» قال سيلاس بهدوء ثم تابع: «المؤلف ليس شخصاً مثالياً، يمكنك الاعتماد عليه في جميع الأوقات وخصوصاً أثناء عمله. إنه يميل لأن يكون أنانياً ومستغلاً للآخرين. حتى أني أحياناً قد أعمل لوقت متأخر في الليل. أتمنى أن لا يزعجك صوت الآلة الكاتبة...»

«أنا أكيدة من أنه لن يزعجني.» أجابته هيزل متسائلة. هل يذكر ذلك أمامها فقط ليحذرها من أنه حين يعمل: يريد الانفراد بنفسه من دون أن يقاطعه أحد. حسناً، يمكنها أن تتفهم ذلك. فهي أيضاً ومن وحي خبرتها الشخصية وعملها كرسامة، تشعر بحاجتها أحياناً للاختلاء بنفسها إذا أرادت أن تنجز عملاً ناضجاً، إنها تعرف الكثير عن تفكيرها وعاطفتها.

«أعتقد أنك نريد أن تترك وشأنك أثناء عملك.» قالت، في محاولة لافهامه بأنها لن تتطفل على خلوته وتضايقه بثرثرتها وبخدماتها الوفيرة، لذلك تابعت قائلة: «إذا أردت أن تخدم نفسك، بالنسبة لي، لا أمانع في تناول الفطور صباحاً، وأثناء عملي أكتفي بشطيرة أو أي شيء خفيف. وبعدها على العشاء... أعتقد بأنه سيكون لديك ترتيبات خاصة بك.»

«هل هذا يعني أن ذلك ما تريدين أن يحصل؟»

كان سؤاله مفاجئاً، مباشراً جداً. نظرت إليه باندهاش متسائلة بحنق، ماذا يريد منها أن تقول. «أنا... أنا...» من الواضح جداً انه كان ينتظر جواباً معيناً على سؤاله، فبدأت غير واثقة: «أ... حسناً، أنا...»

قاطعها سيلاس قائلاً: «أعتقد أن لديك الترتيبات الخاصة بك، قد يكون لديك حياة اجتماعية حافلة وبالتالي لا يمكنك مشاركتي في طعام العشاء. إلا انه بالنسبة لي أفضل التمتع برفقتك وتمضية ساعة أو ساعتين استرخاء في صحبتك، متخلصاً بذلك من إرهاق النهار، ما رأيك؟»

هل كان يسخر منها؟ فهو بالتأكيد قد علم من كاتي بأن حياتها الاجتماعية كانت محدودة جداً: فهي نادراً ما كانت تخرج، حتى أن صديقاتها غالباً ما تذمرن من انطوائيتها واعتبرن أنه سينتهي بها الأمر بأن تتحول إلى راهبة.

لا ريب وأنه يسخر منها، فاجابته بحزم: «كنت بكل بساطة أحاول أن أقول إنك لست ملزماً بأن تتناول طعامك معي.»

أدارت وجهها محاولة أن تنهي تلك المحادثة التي أخذت تتحول إلى المواضيع الشخصية، الحميمة. إلا أنها سمعته يقول بحنان: «من قال إنه سيكون إلتزاماً؟ كنت أفكر بأن ذلك سيكون من دواعي سروري... وممتعاً بالنسبة لي...»

شعرت هيزل برعشة، لو لم تكن تعرفه على حقيقته لكانت صدقت أنه يعني ما يقول... أي أنه يحاول مغازلتها، إنه يحاول أن يفهمها بأنه فعلياً قد وجدها جذابة ومثيرة وهذا بالطبع مستحيل.

إنه متورط مع ابنتها، يا للجحيم، هذا الواقع إضافة إلى ردة

فعلها الشخصية تجاه هذه المعرفة. كانا يدفعانها إلى الغثيان.

إبتهلت إلى الله بيأس أن لا تكون كاتي غارقة جداً في حبه، فهي متأكدة من أنه لا يمكن لرجل مثله أن يبادلها عمق هذا الحب وقوة هذه المشاعر. وآخر ما كانت تريد هو أن تتعرض ابنتها الغالية لأي خطر. وعاجلاً أم آجلاً سوف تتعرض لهذا الخطر. إنه أمر محتوم مع رجل مثل هذا. عاجلاً أم آجلاً ستظهر امرأة أخرى، امرأة أخرى على نقيضها هي، لن تفكر مرتين قبل التجاوب مع تعليقاته، ومع دفء عباراته، مع عاطفته، وحين تفعل...

ارتجفت بشكل واضح مما دفع سيلاس للعبوس وقال: «أتشعرين بالبرد؟... أعتقد بأنه من الأفضل أن نعود.»

أن نعود... فقط؟ لو أن هيزل كانت قادرة على العودة إلى ما قبل لقائها بسيلاس.

ما كاد يمر على معرفتها به أربع وعشرون ساعة، وبرغم ذلك، كانت هذه الساعات الأربع والعشرون كافية لتغير حياتها. لتغيرها، لتكشف النقاب عن مكامن نفسها. لتواجهها بمشاعر وأحاسيس دفينة، ما اعتقدت يوماً بأنها موجودة. فقط لو علمت عنه أي شيء قبل أن تقابله، فقط لو تسنى لها الوقت لتحضر نفسها... إلا أنها كانت متأكدة من أن لا شيء مما كانت ستفعله كان سيحميها من العدو القابع في أعماق ذاتها.

لقد كان والدها محقاً حين أصر عليها بأن تعيش حياة راهبة متبتلة. لكن هل هو وبطريقة ما، استطاع سبر أغوار نفسها لكي يراها على حقيقتها...

لكن إذا كانت طوال هذه السنين تقبع بداخلها هذه الأحاسيس المتأججة. هذه الرقة اللاهثة، هذه الحاجة لأي عطاء، لـ...

لتضعها في شكل أكثر وضوحاً وأكثر قسوة... إذاً، لِمَ لم تظهر لها سابقاً؟ لِمَ لم تشعر أبداً في حياتها بهذا الشعور تجاه أي كان؟

كان سؤالاً أبعد من أن تستطيع الإجابة عليه وهي على هذه الحالة من الارتباك والحيرة. كان سيلاس قد استدار في طريق العودة فبقيت على بعد خطوة منه، تنتظر منه أن يعبر السلم الخشبي أمامها. ولكن تجمدت في مكانها حين استدار نحوها باسطاً يديه تجاهها لمساعدتها.

من النظرة التي ألقتها عليه، عرفت أنها قد ترددت طويلاً. عرفت أن جسدها قد بدأ فعلاً يرتجف من الإثارة والخوف من أن يحملها، ومهما كانت حركته آلية وغير جنسية إلا أن لا شيء قد يمنع الاستجابة له، وحتى الآن، وهي واقفة في مكانها شاخصة إليه، بين دقة قلب وأخرى، كانت قادرة على تحسس قربه منها. كانت قادرة على سماع دقات قلبها الهادرة، شعرت وكأن قلبها سينفطر لا محالة، وسيصيح ويتوسل للرأفة به.

تملكها رعب شديد مما قد يحدث، وكيف أنها سوف تذل نفسها وتخون كاتي إذا خطت خطوة واحدة تجاهه، فقالت له بصوت وكأنه الجليد: «لا عليك، أستطيع تدبر أمري.» وبابتسامة مريرة تابعت: «أنت تعلم بأني امرأة راشدة، ولست بطفلة.»

كانت هذه أسوأ عبارة يمكن أن تنطق بها، فالنظرة التي رمقها بها أحاطتها من كل جانب، وجعلت أعماقها تذوب شيئاً فشيئاً.

أجابها بحزم: «نعم. إني أعلم ذلك جيداً.»

بعد أن خطت خطوة واحدة تجاه الجانب الأخير من السلم، قال: «برغم كل شيء، أعتقد بأني رجل ولست بطفل.»

أقنعت نفسها أن ذلك لم يكن إلا من نسج خيالها، وأنها تركت العنان لمشاعرها، لرغبتها في جعل هذه الكلمات تخرج من فمه. كلمات على الأرجح لا يمكن أن يتفوه بها.

لاحقاً، أقنعت نفسها بأن ما حصل لم يكن إلا نتيجة استغراقها بأفكارها وشعورها الشديد بالذنب، ذلك أنها ما أن انتهت من اجتياز المعبر بسهولة. ووطئت قدمها الأرض، حتى تعثرت بحجر وزلت.

أتت صرختها المخنوقة عفوياً، وكذلك كانت ردة فعل سيلاس، إذ أنه استدار نحوها وأمسكها برقة بين ذراعيه وجذبها نحوه. وجدت أن المسافة بينهما أقرب بكثير من تلك التي أخافتها من دقائق حين عرض مساعدته لها على اجتياز المعبر الخشبي.

لا يمكن لهذا أن يحدث، قالت لنفسها بيأس حين سمعت صوت قلبها الصارخ ولهاثها الحار، بعد أن اشتمت رائحته.

لاعب النسيم خصلات شعرها فانسدل قسم منه على وجهها، قد يكون ذلك ببساطة السبب المباشر لردة فعله العفوية. رفع يده وبرقة متناهية دفعها عن وجهها إلى خلف أذنيها، ونظر بحنان إلى أعماق عينيها وكأنه يفتش عن أمر ما، كأنه ينتظر.

أخبرت نفسها أنه ربما ينتظر أن تدفعه عنها، بانتظار حركة منها لإفهامه بأن مداعباته هذه غير مرحب بها، أو كان بانتظار أن تتذكر كاتي، لكن بدلاً من ذلك حملقت به بدورها وانفرجت شفتاها قليلاً في محاولة لالتقاط أنفاسها وتعبئة رئتيها بمزيد من الهواء. وفكرت بألم أنه لا بد أن يكون شعر بتأثيره عليها وقرأ الدعوة في عينيها، إن لم يقرأها من خلال تجاوبها، لأن يده الراقدة على خصلات شعرها ما لبثت وأن أصبحت أكثر رقة

وإبهامه داعب أذنها ولامسها بنعومة وكأنها غارقة في معطف من الفرو الناعم، حاولت تحكيم عقلها ومحاربة ذلك الشعور الذي احدثته لسمته.

علمت أن لهاثها السريع قد يكشف النقاب عن أمور كثيرة طالما حرصت على اخفائها. امرأة غيرها، أكثر خبرة ونضوجاً ما كانت استجابت بهذه السرعة ولا بهذا الشكل المحرج مع مداعبته الخفيفة، هذا إذا كانت مداعبة حقاً وليست أكثر من سؤال رقيق أو ايحاء. أمر عادي يمكن لكلاهما أن يتجاهلاه بهدوء وروية، واعتبار مرور أصابعه على بشرتها حادثاً عرضياً سريعاً. فقط لو أنها لم تبالغ في ردة فعلها. إلا أن جسدها المرتجف، عيناها المشعتان، تنفسها المتقطع، لهاثها الواضح، شكلت بالتأكيد دعوة صريحة، أكثر مما لو أنها نطقت بهذه الدعوة بصوت عال.

من المؤكد أنه ادرك مشاعرها ولم يجد صعوبة في فهمها، لأنه وقبل أن تفكر بمقاومته، قبل أن تدقق بمشاعرها. أمسك بذقنها ورفع وجهها نحوه لدرجة انها أحست بقوته وضعفها، حاولت نفي هذه المعرفة وهذه الرؤية لرغبتها وانفعالاتها التي تعتمل في داخلها، حاولت أن تطردها خارج كيانها وتقنع نفسها بأن ذلك كله يعود فقط إلى خيالها وردة فعلها المبالغ فيها.

لو لم تكن غارقة في صراعها هذا لكانت ربما استطاعت أن تتفادى العناق. ولكن وبما أن هذا ما حصل، وجدت نفسها تحدق بأعماق عينيه كمراهقة متيمة، علمت أنه سوف يعانقها وأدركت أنها يجب أن تمنعه، وفي الوقت نفسه أيقنت أنها لن تقوم بذلك. المعانقات الوحيدة التي تلقتها خلال عشرين سنة، أتت من

والد خجول متحفظ، أو من ابنة محبة مدللة، أو من صديقات، يرمين قبلاتهن على خدها. وفي مناسبات خاصة جداً، عندما تقف عاجزة عن تجنب أو تحاشي تلك التي هي غير المرغوب بها من معارفها الرجال. ذكرى قبلات جيمي تبدو لها الآن مبهمة وغير حقيقية. كان جيمي يضحك من ترددها في مشاركته العناق، لأنها حينذاك كانت تجده شيئاً مقرفاً.

مع كل ما ينقصها من خبرة ومع كل سنين العزلة، يوجد في مكان ما من أعماق نفسها غريزة مؤلمة، ومعرفة فطرية خافية عنها، ومسجونة داخلها، ذلك انه في اللحظة التي عانقها بها، أغمضت عينيها وعندما أبعدها عنه قليلاً رمشت أهدابها ورفعت جفنيها بتثاقل ورغبة، غشت عينيها غيمة سوداء من الارتباك. بقيت شفتاها منفرجتين، فكرت هيزل أنه ما قام بذلك إلا تلبية لتوسلها له للقيام به.

كرر ذلك مرات عديدة وفي كل مرة تفتح عينيها مقتنعة بانها المرة الأخيرة وأنه على وشك أن يبعدها عنه ويخلي سبيلها. حيرها سؤال قرأته في عينيه وبدا عاجزاً عن الإجابة عليه.

كأنه يفكر بأمر معين، ولكن ما هو؟

ابتعد عنها قليلاً وهمس قائلاً: «لا يجدر بنا القيام بذلك.»

بالتأكيد لا يجدر بهما القيام بذلك. تجمدت فوراً وشعرت بالمرض والغثيان نتيجة لتصرفها، تملصت من بين ذراعيه بسرعة وحزم مما جعله يطلقها.

«لا، لا يجدر بنا القيام بذلك.» أجابته بحزم.

كانت ترتجف بشدة مما جعله يدرك ردة فعلها. كيف أمكنها أن تفعل ذلك؟... كيف سمحت لذلك بأن يحدث؟ ولماذا حصل؟ من الواضح انه كان رجلاً جذاباً من الصعب مواجهته، وقادراً على

السيطرة على نزواته، وإلا لما تجرأ أبداً وحاول لمسها. فهي والدة كاتي، بحق السماء.

لكن... لكن ليس هناك من شيء في شخصيته يدفع إلى الاعتقاد بأنه كان عاجزاً عن السيطرة على نفسه... يبدو عليه أنه يحاول توكيد ذاته أو تعويض عقدة نقص في نظرته لرجولته. ولكن... لا بد أن يكون كذلك وهو الذي سمح لنفسه بغواية فتاة مراهقة. وقد تكون بلغت به الوقاحة والغرور أن يعتقد بأنه يستطيع الحصول عليهما معاً، الوالدة والفتاة، ربما...

تلاحقت أفكارها الجامحة وتوالت عليها وكأنها كلاب للصيد، فقدت السيطرة على نفسها وهي تلاحق حيواناً ضعيفاً وتتوق لتدميره.

حاولت بيأس أن تسيطر على عواطفها، على تنفسها، على دقات قلبها المشوشة، على ضعفها وجسدها ومشاعرها. شعرت أنها على وشك البكاء، لكن الدموع كانت شيئاً لن تسمح لنفسها أبداً بالقيام به. لقد تعلمت منذ زمن بعيد بعبثية وخطورة الشعور بالشفقة على النفس والخنوع.

لقد شعرت الآن أنها أكثر هشاشة من ذي قبل، تملكها خوف لم تشعر بمثله طيلة حياتها، وكل ذلك بسبب هذا الرجل، تملكتها رجفة صغيرة... كل ذلك بسبب هذا الرجل الذي ليس له أدنى الحق بأن يجعلها تشعر على هذا النحو. هذا الرجل الذي يفترض أن يكون مرتبطاً بابنتها. هذا الرجل الذي، منذ لحظة وجيزة، خانت معه ذلك الارتباط وخانت ابنتها كاتي.

لم تستطع تحمل عبء ذنبها. أرادت أن تسأله لتعرف إذا كان يفكر بكاتي، إذا أدرك ما فعله، إذا كان، مثلها، يتعذب من مشاعر الذنب، من مشاعر القلق والكآبة، لكنها لم تجرؤ على ذكر اسم

ابنتها. ليس بهذه السرعة بعد أن كانت بين ذراعيه. ليس بعد أن تجاوبت معه بهذا الاستهتار، بهذا الشوق. لقد شاركته في تلك الخيانة. ومجرد ذكر ابنتها الآن سيكون وكأنها تقوم بخيانتها للمرة الثانية.

بدلاً من ذلك واست نفسها وقالت بصوت خافت: «كيف أمكنك؟ كيف أمكنك أن تتصرف بهذه... بهذه الدناءة؟»

في اللحظة التي استدارت بها مبتعدة عنه، لحظت عبوسه حين سألها باقتضاب: «أنت تبالغين، أليس كذلك؟»

أمسكت نفسها وتقلصت وهي تشعر بالألم والاشمئزاز من نفسها. لحظة أخرى وكان سيقول لها إنها كانت مجرد عناق. حسناً، قد تكون قليلة الخبرة لكن ما حصل لم يكن مجرد عناق. وردة فعلها لم يكن مبالغاً فيها.»

ألقت عليه نظرة عنيفة تدينة وقالت بغضب: «إني أبالغ؟ لا أظن ذلك. وخصوصاً في مثل هذه الظروف.»

زاد عبوسه وأضاف: «حسناً، أرى أنني قد أسأت فهم هذا الوضع كلياً.»

الحذر والحيطة أنذراها بأن لا تجيب، لكنها كانت مدفوعة بشعورها بالذنب والألم، فتجاهلت هذه التحذيرات وسألته ببرود. «ماذا تعني؟»

النظرة التي رمقها بها كانت عميقة ومتأملة. ليست نظرة رجل يعذبه شعور بالذنب.

«أعتقد بأنك تعلمين ماذا أعني.» قال ذلك بصوت، يكاد يكون لطيفاً، باسلوب يكاد يكون لراشد ناضج يخاطب طفلاً مشاكساً.

«لا، لا، في الواقع إني لا أعلم.» أجابته بصوت عال، لاذع وقاسٍ.

كان ما يزال يراقبها بتلك النظرة الجدية المتسائلة والتي قد بدأت تثير أعصابها.

قال بهدوء: «حسناً جداً، تصورت... اعتقدت... أن ما حصل بيننا لم يزعجك ولم يبد وكأنه ضايقك.»

ثوان عديدة مرت قبل أن تستوعب تماماً ما عناه، وعندما فعلت شعرت بدمائها تغلي فاحمرت غيظاً وقالت بحنق: «أنت تعتبر أن الذنب ذنبي؟ أنا أغويتك؟ أعتقد أنك من نوع الرجال الذي... يغتصب امرأة ثم يدعي أن هذا ما أرادته.»

لقد كانت غاضبة جداً لأن تدقق بما كانت تقول، لتدرك كم أهانته، تغيّر لون وجهه وقال بحدة: «الآن، مهلاً لحظة...» وتقدم خطوة واحدة باتجاهها في حين تقلصت هي وتراجعت خطوة إلى الوراء، خائفة مما، رأته من ثورة في عينيه.

بدا وكأنه أخذ نفساً عميقاً وأجبر نفسه على كبح مشاعر غاضبة قبل أن يقول بهدوء: «لم أكن ولو للحظة واحدة، ألقي اللوم عليك... أو أعتبر أن احداً منا الملام. هو حتى أني لم أفكر بأن ما قمنا به يستدعي الاحساس باللوم. ما كنت أحاول قوله إنه عندما عانقتك فكرت... شعرت بأنك لم تكوني ضد ما كان يحدث بيننا أو ما اعتقدته يحدث بيننا.»

تقلص صوته من جديد ثم ما لبث أن أصبح أكثر حدة عندما خاطبها: «أما في ما يخص بتعليقك حول الاغتصاب، دعيني أؤكد لك أن فكرة اجبار امرأة ما، أية امرأة على التجاوب معي أمراً أجده بربرياً كريهاً. إني لا أدرك كيف يستطيع أي رجل أن يفرض نفسه على امرأة لا تريده، وإذا كنت قد أعطيتك انطباعاً مختلفاً، أعتقد اني مدين لك بالاعتذار.» أصبح صوته جليدياً والاضطراب الظاهر الذي

اعتراه جعل هيزل تشعر بموجة عارة من الندم والخجل يعتملان في داخلها.

ما كانت تحاول القيام به هو لومه على أمر كانت تعرف حق المعرفة أنها تشاركه به. أرادت أن تصرخ بوجهه أن ما حصل كان غلتطها هي، وأن رعبها هو الذي دفعها للتصرف على هذا النحو السيّء، كطفلة صغيرة، وأنها تعرف أن ما حصل هو... هو ماذا؟ إنه كان على حق حين لمح أنها أرادته بقدر ما أرادها. ألم تكن هذه، بكل بساطة، الحقيقة المطلقة؟

لكن قد تكون الحقيقة، ولكنها ليست بهذه البساطة... ليست بهذه البساطة على الاطلاق.

أعادها صوت سيلاس إلى الواقع حين تابع: «إذا كان ذلك يريحك، فإني أؤكد لك أن هذا لن يتكرر أبداً مرة ثانية، وأرجوك دعيني أتعهد لك بأن طيلة مكوثي معك تحت سقف بيتك ستكونين آمنة من أي... سوء تفاهم جديد مماثل قد يحصل في ما بيننا.»

ما كان يعنيه هو أنه لن يلمسها مجدداً، وأنها يجب أن تكون شاكرة له على مبادرته، لكنها بدلاً من ذلك شعرت وكأن غيمة سوداء غمرتها فجأة. ماذا كان يعني بأثناء إقامته تحت سقفها؟ بالتأكيد بعد الذي حصل بينهما كان الأجدر به أن يغير رأيه حول استعمال منزلها كقاعدة أثناء عمله في هذه المنطقة؟

لكن الظاهر أنه لن يفعل ذلك، وشعرت بأنها مرهقة جداً، ضعيفة جداً لأن تدخل في تحد جديد وتسأله أن يجد مكاناً آخر ليعيش فيه. إذا فعلت، الله يعلم كيف ستكون ردة فعله؟ قد يتهمها بأنها تريده أن يرحل، ليس لأنها لا تثق بكلمته بل لأنها لا تستطيع الوثوق بنفسها.

كانا على وشك الوصول إلى السيارة حين سألته بصوت

مرتبك وهادىء: «لن... لن تقول شيئاً لكاتي، أليس كذلك؟»

شعرت بألم عظيم كونها مجبرة على أن توجه إليه مثل هذا السؤال، إلا أنها لم تستطع تحمل فكرة أن يُظهر استهتارها لابنتها... ويجعلها تنقلب ضدها بسبب ذلك.

كانت شبه متأكدة من أن النظرة التي رمقها بها كانت مزيجاً من الدهشة والاحتقار.

«لماذا بحق السماء علي أن أقوم بذلك؟» سألها بصوت جليدي.

لم يكن هناك شيء تجيبه به. لماذا بالفعل؟ جوابه أعادها إلى وضعها الحقيقي. وكأنه أراد أن يخبرها بأن ما حصل بينهما... ذلك العناق الذي كان له كل ذلك التأثير القوي عليها... لا يعني له شيئاً على الاطلاق.

كان يجب أن تشعر بالارتياح والثقة، ولكنها بدلاً من ذلك شعرت بفراغ عظيم، بألم شديد ووحدة قاتلة لم تشعر بها قط طيلة حياتها.

الفصل الخامس

شعرت بثقل في رأسها، أحست به يميل فوق كتفيها نتيجة خجلها وقلقها، تساءلت كيف لها بحق السماء، القدرة على تمضية هذه الأمسية، كاتي ليست مغفلة. لا بد لها أن تلاحظ ذلك الصمت الحاد المخيم بينها وبين سيلاس. ابتهلت إلى الله أن لا تعرف سببه على الأقل.

عادا إلى المنزل بذلك الصمت المخيم والذي استمر حتى بعد أن عادت كاتي، وراحت بكل حيويتها وفرحها تسرد عليهما ما جرى لها من أحداث، ودام صمتهما خلال العشاء وما بعده.

لم يكن صمتها بسبب حزنها أو محاولة منها لمعاقبة سيلاس أو نفسها. والله يعلم أنهما يستحقان العقاب. لكن ذلك بكل بساطة كان ناتجاً عن خوفها، لم تجرؤ على محادثته، لأنها لو فعلت، لم تكن لتعرف ردة فعلها أو فعله، خافت من قربها منه، خافت من أن تخونها تعابيرها.

حافظت على المسافة التي تفصل ما بينهما كما حافظت على صمتها. مجيبة على التعليقات التي كان يوجهها إليها بكلمات مقتضبة.

بعد أن أقنعت نفسها بأنه الحل الوحيد المتبقى لها، أعلنت أنها ستأوي إلى فراشها باكراً. تجاهلت تذمر كاتي وتعليقاتها بأنها ستنطلق غداً باكراً وانها ما كادت تراها خلال هذه العطلة...

لم تستطع أن تجبر نفسها على قول التعليق الذي من الواضح يجب قوله، في ما إذا لم تكن كاتي قد اتفقت مع سيلاس بأن

يزورها في الجامعة خلال عطلة الأسبوع، فقد يمضي وقت طويل قبل أن تسنح لهما الفرصة ليلتقيا وحدهما مجدداً. عوضاً عن ذلك فكرت بأن كاتي سوف ترحب بانسحابها لتستفيد من فرصة تمضية بعض الوقت على انفراد مع سيلاس.

لقد وجدت صعوبة بالغة في أن تجبر نفسها على الاعتراف بأن كاتي وسيلاس حبيبان، ولا عجب، من أنها تجمدت فيما كانت ترتب سريرها.

أي نوع من الأمهات، هي التي طالما افتخرت بامومتها، وطالما ضحت في سبيل تأمين حاجات ابنتها ورغباتها قبل أن تؤمن حاجاتها هي؟ هل كانت تضع مصلحة كاتي أولاً حين سمحت لسيلاس، صديق كاتي بأن... بأن؟ بأن ماذا؟ بأن يعانقها؟

ارتجفت من الألم، لم تشعر قط في حياتها بمثل هذا الاضطراب وهذا الحزن. لماذا بحق السماء كانت تتفاعل مع سيلاس بهذا الشكل؟ لماذا بحق السماء، اختار جسدها أن يبدي هذا التوق؟ إنه قد يستجيب بقوة، إنه حتى الآن... أجل، حتى الآن، مجرد تذكر عناق سيلاس، يوقظ كل تلك المشاعر والأحاسيس التي خبرتها بين ذراعيه؟

لم تعد كما كانت مراهقة شابة، أو صغيرة يافعة. لم تعد كما لو... كما لو ماذا؟ صوت داخلي طالبها بالحاح أن تكمل... كما لو انها مازالت امرأة؟ لكنها بالطبع مازالت امرأة.

حسناً اعترفت بالم. نعم ما زلت امرأة، وامرأة مجنونة أيضاً. ولكن لماذا بحق السماء، كانت ترغب بسيلاس؟ لقد التقت رجالاً آخرين والعديد منهم، ولم تستجب قط لأحد منهم كما استجابت له. لكنها كانت تعلم، ولو دلفت إلى سريرها، أنها لن تجد سبيلاً

إلى النوم، سمعت طرقاً خفيفاً ومتقطعاً على الباب، تقلصت عضلاتها وصعد الدم إلى رأسها وتسارع نبضها.

سيلاس! لكن لا يمكنه... لا، لن يقوم أبداً بهذا...

لم تدرك إذا كانت قد شعرت بالراحة أو بالاحباط حين فتحت كاتي الباب ودخلت الغرفة.

سألتها باهتمام: «أنت بخير، يا أمي؟ تبدين شاحبة جداً.»

«أنا تعبة، هذا كل ما في الأمر.»

جلست كاتي على السرير وهي تراقب والدتها، استلقت باسترخاء ثم ما لبثت أن سألتها مستكشفة: «حسناً، ألم أكن على حق؟ أليس سيلاس رائعاً؟»

شعرت هيزل وكأن أحدهم قام بقطع كل شرايينها وأن دمها تدفق بحرارة وألم وغادر جسدها. «إنه... إنه... يبدو مسلياً.» هذا كل ما استطاعت قوله ثم أشاحت وجهها عن كاتي.

«مسلياً!» ضحكت كاتي بصوت عال وأضافت: «أمي، كيف يمكنك؟ شخصياً، أعتقد أنه أكثر الرجال جاذبية على الاطلاق. طبعاً إنه ليس من نوعي المفضل. إنه كبير جداً، أولاً، ثم إنه أوضح لنا عدم اهتمامه بطلباته الشابات. طبعاً فعل ذلك بتهذيب ورقة. يجب أن تشاهدي كيف يهتم بطالباته المتحمسات. من العجيب كيف يستطيع قمع... أمي ما خطبك بحق السماء؟» سألتها كاتي بعد أن استدارت نحوها إثر سماعها الصوت الذي أطلقته هيزل تعبيراً عن صدمتها فرأتها شاحبة الوجه، جاحظة العينين.

«كاتي ماذا تقولين بحق السماء؟» سألتها والدتها بجنون. وأضافت: «أعني، ليس الأمر أنك تحاولين الادعاء بذلك لطمأنتي، أنت تعلمين ما أعني. ادركت فوراً، ما عنيته حين

وصفت سيلاس بالخاص جداً، ولو أنه عليّ أن أعترف بأني قد اعتقدت أنه أصغر سناً. أعني، أنه لا بد وأن يكون في الأربعين...»

«في الواقع، واحد وأربعون.» أخبرتها مؤكدة، ثم تابعت: «ما الذي تحاولين قوله؟ لا يمكن أن تكوني قد اعتقدت أني وسيلاس... أننا...» انفجرت كاتي ضاحكة. «لكن هذا مستحيل... يا للسماوات... لا أستطيع تخيل ما الذي دفعك إلى الاعتقاد... الآن فهمت لماذا قمت بكل تلك المقدمات عندما حددت لنا غرف نومنا. آه، يا أمي...» اقتربت من والدتها وضمتها بقوة. «بالتأكيد في اللحظة التي رأيت فيها سيلاس أدركت... أن لي من العمر كي يكون والدالي...» توقفت لحظة وألقت نظرة مفكرة، قلقة على هيزل.

«هل هذا ما خطر في بالك؟ إني أفتش عن صورة بديلة لأب فقدته؟» هزت رأسها نفياً وأردفت: «أمي، لقد أنشأتني في أمان تام، بعيدة عن الانزلاق في مثل هذا النوع من العلاقات. أنا لست بحاجة إلى أب، وعندما يأتي اليوم الذي أحتاج فيه أو أرغب فيه بحبيب، سيكون رجلاً تربطني به روابط مشتركة... سيكون رجلاً أستطيع مشاركته حياته وخبراته، وليس شخصاً يكبرني بعشرين سنة خبرة. ليس شخصاً يعاملني كطفلة صغيرة. آه، يا أمي... انتظري حتى أخبر سيلاس بأفكارك هذه...»

جاءت ردة فعلها فورية، تعلقت بذراع ابنتها متوسلة لها بأن لا تفعل وقالت بصوت أجش: «كاتي! لا، أرجوك، عديني بأنك لن تذكري هذا الأمر أمامه.» لاحظت نظرة كاتي المندهشة فتابعت: «أرجوك سوف أبدو كالبلهاء، سوف أشعر بالاحراج...»

«أعتقد حقاً أنك سوف تبدين كذلك. من خلال معرفتي به لا

أعتقد أن سيلاس سوف يسر باتهامه انه من نوع الرجال الذين يحاولون توكيد ذاتهم عبر مصادقتهم واغوائهم لمراهقات.»

وافقتها هيزل: «لا.»

«لغاية الآن لا أستطيع تصور السبب الذي دفعك لمثل هذا الاعتقاد بأننا أنا وسيلاس حبيبان.» قالت كاتي وكأنها مازالت تعاني من صدمة ما سمعته، وعاجزة عن تصديق هراء والدتها.

«أنت قلت إنه شخص مميز بالنسبة لك.» دافعت هيزل عن نفسها.

«حسناً، نعم، ولكن كان ذلك بسبب...» توقفت كاتي فجأة عن الكلام.

«بسبب ماذا؟» سألتها هيزل باصرار.

«أيه... لأنه... لأنه مميز، ولأنه... لأنني أعرف لأي مدى تتمتعين بقراءة كتبه.»

«لكنك لم تخبريني في بدء الأمر عن هويته الحقيقية.» أشارت هيزل.

«إنه... لا... أردت أن أفاجئك.»

«لقد فعلت ذلك حقاً.» وافقتها هيزل ضاحكة ثم أضافت بعد أن لمعت فكرة جديدة في رأسها: «لكن يا كاتي أنت تعلمين أني ما كنت قد وافقت أبداً على مكوثه هنا لو لم أشعر بمدى أهميته بالنسبة لك. أعني...»

«ماذا؟ ما الذي يفرق إذا لم نكن حبيبين، ما الذي يتغير؟»

كل فروقات العالم، أرادت هيزل أن تجاوبها، ولكنها علمت انها عاجزة عن ذلك.

ارتعدت فجأة متسائلة ما الذي كان سيحصل بعد ظهر هذا

اليوم لو أنها كانت على علم بذلك. تصرفت كالحمقاء ولكنها ليست مجنونة تماماً.

رجل في مثل خبرات سيلاس لا يمكن أن يهتم حقيقة بامرأة مثلها. آه، قد يغازلها، أو يداعبها، يعانقها، أو حتى يقيم علاقة معها إذا اعتقد أنها ترغب بذلك. لكن هذا النوع من العلاقات لا يرضيها هي. إنها أضعف من أن تتحمل عبء مثل هذه العلاقة.

الآن، بعد أن تخطت صدمتها الأولية، التي تمثلت باكتشافها أن كاتي وسيلاس ليسا حبيبين وجدت أن، الراحة التي كان يجب أن تشعر بها، الاسترضاء والتخلص من التوتر وكره الذات،هذه المشاعر التي كان يجب أن تحسها امتزجت كلها بمخاوف أخرى وشكوك جديدة.

ذكرت نفسها في وقت عصيب أن لا شيء يحدث بشكل عرضي... وأن لكل شيء سبباً أو هدفاً ولربما كان تصرفها في خداع نفسها واقتلاع تفكيرها عن التعلق بأوهام خطيرة مقصوداً، وهو ما دفعها لتفكر بأن سيلاس وكاتي متورطان في علاقة ما. ما حصل بالتالي كان من حسن حظها في هذا الاطار، إذ أنها بذلك تجتنب فعلياً كارثة كانت ستحل بها نتيجة انجذابها الخطير لسيلاس. برغم كل شيء، هل توجد فكرة أفضل من أن تعتقد أن سيلاس وكاتي عاشقان لتحمي نفسها وتضعها عائقاً ما بينهما؟ أما الآن وبعد أن تحطم هذا العائق وتخلصت منه، سوف تتصرف كحمقاء متجاهلة التحذيرات الصادرة عن عقلها وإدراكها.

كان من الواضح أن رجلاً مثل سيلاس، رجلاً في مثل عمره وخبراته وجاذبيته لا بد وأن يكون لديه وعبر السنين، علاقات عديدة مع نساء جذابات. وواقع عدم زواجه يشير إلى هذا، على

الرغم من ذكائه، جاذبيته، نضوجه، ورفقته الممتعة، لا بد وأن يكون في داخله تردد كبير، يمنعه من الوقوع فعلياً في ارتباط صادق متين وعلاقة دائمة مع شخص ما.

لكنه قد يكون مثلها، هذا ما أراده ببساطة، أي أنه لم يجد بعد الشخص المناسب الذي يود أن يرتبط به، ارتباطاً أزلياً. همس صوت من داخلها وعذبها.

حتى ولو كانت هذه هي القضية، من السخف أن تعتبر أنها قد تكون هي هذا الشخص المناسب. إنها من الممكن أن تكون ذلك الشخص المميز الذي قد يدفعه...

يدفعه إلى ماذا؟ للوقوع في حبها؟ الآن بدت سخيفة جداً. والأكثر من ذلك، أنها كانت تتصرف كالبلهاء. الشعور الذي كانت تحمله له وما خبرته بعد ظهر هذا اليوم، لم يكونا إلا ميلاً حسي، رغبة متخلفة. يجب أن تكون كذلك. فالانسان لا يقع بهذه السهولة، خصوصاً وهي في السادسة والثلاثين، في الحب، في فترة لا تتجاوز الدقائق. فالانسان قد يقابل أحدهم، يعجب به، يتعرف إليه وبعدها ربما... تتطور علاقتهما لتصل إلى سدة الحب أو الثقة المتبادلة بينهما. هذه هي الطريقة المنطقية لحدوث الأشياء.

«أمي، هل أنت متأكدة من أنك بخير؟» سألتها كاتي بقلق شديد.

«ماذا؟ آه، نعم... نعم، إني بخير.»

«حسناً، أنت لا تبدين كذلك.» أجابتها كاتي بصراحة: «آه، بما أننا مازلنا في هذا الموضوع، لقد قطعت لك وعداً، بأن لا أخبر سيلاس بما اعتقدت، وأنا أيضاً أريد منك أن تعديني شيئاً في المقابل.»

رمقتها هيزل بحذر وسألت: «ماذا؟ أعدك بماذا؟»

«إنك لن تتصرفي بتحفظ شديد مع سيلاس وتستغلي رحيلي، لكي تطلبي منه إيجاد مكان آخر ليمكث فيه.»

حملقت هيزل بها. كيف أمكنها بحق السماء، أن تعرف ما يدور في خلدها من أفكار؟

«سوف تفعلين ذلك، أليس كذلك؟» اتهمتها كاتي وأردفت: «أرجوك، يا أمي، فكري فقط بي وكيف سأبدو إذا أنت فعلت. لقد أكدت لسيلاس بأنك لن تعارضي أبداً، وأنك ترحبين بفكرة إقامته معك وأن هذه فكرتك ودعوتك، في الواقع، ثم تأتين أنت لتطلبي منه الرحيل؟»

«لكن يا كاتي...»

«لا. كنت سعيدة بما فيه الكفاية لأن تبقيه هنا عندما فكرت أنه وأنا... حسناً، عندما فكرت ما فكرت.»

«اعتقدت أنك أتيت به إلى هنا فقط كي أراقبه لك.» اعترفت هيزل بيأس، احمرت وجنتاها خجلاً عندما انفجرت كاتي ضاحكة.

همست قائلة: «هل فعلاً اعتقدت هذا؟ حسناً، دعيني أقول لك شيئاً، أيتها الأم البريئة... إذا كنت فعلاً أريد التأكد من أن الذي سأختاره لن ينظر إلى سواي. كوني أكيدة من أني لن أعرفه عليك أبداً.» تأملت وجه والدتها، ضحكت وتابعت مجدداً «... آه، هيا لا بد وأنك قد رأيت مدى تعلق أولئك الفتيان الذين أحضرتهم إلى هنا بك؟»

«كاتي، تعلمين كم هو معيب أن تقولي هذا.» اعترضت هيزل بصوت ابح وأردفت: «لقد كانوا فتياناً...»

«وسيلاس رجل؟» سألتها كاتي بنعومة. «ستكونين بأمان معه، أنا متأكدة. ولو فكّرت للحظة بغير ذلك لما... أما إذا كانت الأقاويل هي ما تقلقك...»

«أقاويل؟» ألقت هيزل عليها نظرة غضب وتعنيف وتابعت: «لا تكوني حمقاء، من سيتناولني بثرثراته؟ أنا في السادسة والثلاثين من عمري، يا كاتي.»

«ولو أنك لا تبدين حتى في السادسة والعشرين.» قالت كاتي محاولة استفزازها وتابعت: «مع أن نصف الرجال الذين يبعدون عنا أميالاً، ينظرون إليك وكأنهم كلاب تنظر إلى عظمة شهية.»

جفلت هيزل بوضوح واعترضت قائلة: «كاتي. هذا ليس صحيحاً.»

«بالتأكيد إنه صحيح.» أصرت كاتي بلهجة مرحة: «لكنك أنت لا تريه. أنت لا تريدين رؤيته. الآن، هيا أريد هذا الوعد أو أني سأذهب حالاً ومباشرة إلى سيلاس وأخبره...»

«حسناً، حسناً، إني أعدك.»

ربما سيلاس نفسه الآن قد اتخذ قرار الرحيل بعد أن أوضحت له أنها لم تكن هي من... وأنها لن... عضت شفتها بيأس بعد أن عاد إلى ذاكرتها ما قالته له. لا عجب الآن من أن ردة فعله على تعليقها جاءت غاضبة هكذا. حمداً لله على أنها لم تشر لعلاقته بكاتي بوضوح ومباشرة.

ماذا لو فعلت... بلعت ريقها بتوتر. ما حدث ظهر هذا اليوم كان على الرغم منها. لم يكن من سماتها. لقد كانت محظوظة باعتقادها أنه متورط مع كاتي. آخر ما تبغيه الآن، آخر ما هي بحاجة إليه هو أن يقيم معها علاقة ثم يرميها بعد أن يضجر منها. رجل هو...

رجل، هو ماذا؟ عاد ذلك الصوت يهمس بحذر في داخلها. رجل يغويها رجل يغريها، رجل لمساته وعناقه تعدها بأحاسيس لم تحلم أبداً بها أو بأنها ستعيشها. لكن ماذا لو

كانت الرغبة فقط هي ما تجذبه إليها، ماذا لو كانت رغبته بها مؤقتة، ماذا لو انتهى من عمله، وفرغ من كتبه، سيتركها ويمشي من دون أن يلقي عليها ولو نظرة وداع؟ لكن على الأقل تكون قد عاشت، عاشت حقاً... على الأقل تكون قد لامست النجوم وأدركت حقاً ما يعني أن تكون امرأة.

أرعبتها تلك الأفكار الغادرة، المبتذلة. أجبرت نفسها على التوقف. حاولت أن تركز على ما كانت كاتي تقوله بعد ترددها في اعطائها ذلك الوعد الذي طولبت به.

سيلاس أيضاً قطع لها وعداً ظهر هذا اليوم، وعداً بأن لا يلمسها ثانية ما دام يمكث تحت سقف بيتها. هل سيحترم وعده أم...؟

شعرت بارتفاع حرارة جسدها. بتقلص عضلات معدتها.

بالتأكيد سيحترم وعده. وطبعاً تريده أن يفعل ذلك. لكن أحقاً تريد ذلك؟

على الرغم من اصرار كاتي على أن لا توصلها إلى المحطة، استيقظت هيزل في السادسة من صباح اليوم التالي لتوصل ابنتها إلى أقرب محطة.

«صراحة، يا أمي، لم يكن من داع لقيامك بهذا.» اعترضت كاتي. «لا أدري إذا كنت سأتمكن من العودة إلى البيت قبل الميلاد.»

«لا بأس.» طمأنتها هيزل وأضافت بجفاف: «أنا فتاة كبيرة الآن. لست بحاجة لأن تهرعي إليّ كل نهاية أسبوع لتطمئني عليّ.»

جعل تعليقها كاتي تضحك محاولة اغاظتها وقالت: «آه، حقاً؟»

قبل أن تنطلق بسيارتها، ألقت نظرة غير متأكدة نحو المنزل. لم يكن هناك أي ضوء فيه. حتى غرفة سيلاس كانت لا تزال مظلمة.

بعد أن قبلت كاتي قبلة الوداع وضمتها، لوحت لها مودعة مبتعدة وعادت أدراجها إلى المنزل.

عليها اليوم أن تتفرغ لترتيب غرفة نوم والدها القديمة، وتنظيف الغبار الذي تراكم فيها على مدى السنين منذ موت والدها.

كان عليها شراء بعض الحاجيات والتبضع. منذ رحيل كاتي إلى الجامعة تعودت على شراء كميات قليلة من الطعام لكن الآن وبوجود سيلاس...

هذا هو الحل، قالت لنفسها وهي تدخل بتردد إلى المنزل. عليها أن تشغل تفكيرها دائماً بأشياء تافهة، باهتمامات المنزل وحاجياته، بالحديقة، بهذه الطريقة لن يكون عليها أن تفكر بأمور أخرى مقلقة تتعلق بسيلاس أو بما حصل بينهما.

حضّرت لنفسها إبريقاً من القهوة الطازجة وجلست على كرسيها تداعب الكوب في يدها.

من حسن الحظ أنها لم تبدأ بعملها الجديد، لذا سوف يكون لديها الوقت الكافي لتعكف على ترتيب المكتب والقيام بالتبضع. كما كان عندها بعض المهام المتراكمة، في الحديقة. ومع اقتراب الميلاد سوف يكون عليها أن تبدأ بالتفكير في شراء الحاجيات الخاصة بهذا العيد.

ستقوم بأي شيء... أي شيء يخطر ببالها حتى تبقى منشغلة طيلة الوقت، مشغولة الفكر واليدين.

كان قد مرّ قرابة نصف الساعة عندما وقفت هيزل في وسط

غرفة المكتب القديم تحاول زحزحته من مكانه حتى تستطيع تنظيف أدراجه حين سمعت صوت صنبورة غرفة الحمام يأتي من الطابق العلوي.

عندما انتقلت إلى هذا المنزل، قام والدها بإضافة حمامين، أحدهما كان عبارة عن غرفة خشبية صغيرة محاذية لغرفة نومه أما الآخر فقد أنشأه بين غرفة نومها وغرفة نوم كاتي، التي كانت في الأصل غرفة الحضانة.

عندما كبرت كاتي، أضافت هيزل غرفة حمام بجانب غرفة نومها، حتى تتمتع بخصوصيتها وبعض العزلة.

الآن، سيلاس يشغل غرفة الحضانة القديمة الخاصة بكاتي. بعد أن وضعت هيزل سريراً داخلها، وهذا يعني أنه يستعمل غرفة الحمام التي أضافتها.

شعرت باحساس غريب يطعن معدتها لمجرد استنتاجها بأنه هناك، يقف تحت الدوش، جسده يتألق تحت قطرات الماء ورذاذ الصابون، شعره الأسود يلتصق بجلدة رأسه. لم يسبق لها أبداً أن وجدت نفسها منجذبة لرجل بهذا الشكل. وجدت فجأة نفسها تخضع لخضم من الأفكار الحسية.

أفضل طريقة لتدفع عنها مثل هذه الأفكار الخطرة. الثائرة، هي العمل بعنف وجدية بحيث أنها لا تعود إليها. عليها أن تسجنها في مكان عميق في داخلها. تمسكت بقرارها وعاودت محاولتها في ازاحة ذلك المكتب الثقيل إلى وسط الغرفة حتى يستطيع سيلاس عند الجلوس وراءه التمتع بالضوء القوي والمنظر الجميل عبر النافذة وحيث يستطيع في الوقت نفسه الاستفادة من حرارة التدفئة المركزية.

بعد موت والدها، عملت على توضيب أوراقه، فكانت تحتفظ

بالأهم منها، تنقلها إلى مكتبها الخاص وترمي جانباً الأوراق غير الضرورية. لكن قامت بعناية بحفظ ملفاته الخاصة وحاجياته وأوراقه الشخصية مثل ألبوم الصور القديم والرسائل. اعتقدت هيزل انها قد تفرح أولاد كاتي مستقبلاً وتدخل البهجة في نفوسهم.

كان المكتب القديم ملاصقاً للحائط. أما الغرفة فقد كانت مليئة بأشكال مختلفة من الأثاث والأغراض المتنوعة بما فيها كرسي والدها المفضل، موطأ للأقدام وغيرها العديد من قطع الأثاث الغريب.

قررت هيزل أن تحتفظ بالمقعد والموطأ للأقدام في الغرفة وكانت قد وضبت رفوف الكتب التي كانت تغطي جزءاً كبيراً من الحائط وملأتها بأنواع مختلفة من الكتب لكنها تركت الخزائن الصغيرة تحتها فارغة، كي يضع فيها سيلاس أوراقه الخاصة.

فيما هي تجهد في صراع عقيم مع المكتب القديم الثقيل، تساءلت هيزل إذا كان يستعمل كومبيوتراً أو آلة كاتبة كهربائية.

شكرت نفسها لأنها عمدت إلى نزع الستائر في الربيع الماضي، وحيث قامت بتنظيفها وغسلها، فما كان عليها الآن إلا أن تجلبها من الطابق العلوي لتعلقها من جديد، و...

كان المكتب على وشك أن يستقر في المكان الذي أرادته هيزل. ما تحتاجه، دفعة صغيرة فقط لكن ذاك المكتب التعس رفض أن يتحرك، من شدة غيظها، ركلته بأعلى ساقها في محاولة أخيرة لتحريكه من مكانه.

سمعت نفسها تصرخ من الألم والحنق، انتبهت إلى انقطاع صوت الماء الجاري، لكن لم يخطر ببالها أن سيلاس هرول نزولاً إلى الطابق الأرضي إلا حين فتح الباب وسألها

بقلق: «هيزل! ماذا هناك؟ سمعت صراخك، هل أنت بخير؟»

احمرت وجنتاها وشعرت بجسدها يغلي، أدركت هول منظرها بسبب تشعث خصلات شعرها، التصاقها ببشرتها، سروالها الجينز الوسخ، وجهها الخالي من أي مسحوق تجميلي. استدارت لتواجهه وقالت باختصار: «إني بخير. لم أكن أعلم انك هنا. سوف أنظف نفسي ثم أحضر لك فطورك.»

«إني لست طفلاً، كما تعلمين.» أجابها سيلاس ببرود. وتابع: «لم يكن هناك من داع لأن تنتظريني، إني قادر على تحضير كوب من القهوة والاكتفاء بوجبة سريعة. لكن ماذا تفعلين هنا بالتحديد؟»

«أليس ذلك واضحاً؟» سألته هيزل بحدة. شعرت بتشنج في ذراعيها، وكأنهما تحذرانها من أنها قد أنهكت نفسها في محاولتها لإزاحة المكتب. «كنت أجهز الغرفة حتى يصبح بإمكانك الانتقال إليها واستعمالها لانهاء أبحاثك. لكن هذا المكتب اللعين...»

عبس بها سيلاس بعد أن دخل الغرفة.

«كنت تحاولين إزاحة هذا؟» سألها باقتضاب: «يا إلَهي، يا امرأة، هل جننت؟ ألم تلاحظي أنه كان من السهل إصابتك بجروح؟» سألها بحزم وتابع حتى من دون أن ينتظر إجابة منها: «لكن لماذا بحق السماء، لم تنتظري حتى...»

شعرت بقلبها ينفطر، شعرت بكل ارتباك العالم، بكل ذلك القلق والألم اللذين اعتملا داخلها مؤخراً فثارت ثائرتها عليه وانفجرت بكل شقاء وتعاسة وسألته: «حتى ماذا؟ حتى تنزل حضرتك، سيد عبد الجبار، لتحركه لي؟» ثم تابعت بعدوانية: «حسناً، دعني أقول لك شيئاً، لست بحاجة لمساعدتك. في

الواقع، لست بحاجة لأي شيء منك على الاطلاق، إني قادرة على تدبر أمري بنفسي.»

فكرت بسرعة بما كانت تقوله فتوقفت فجأة عن الكلام. كانت طبول قلبها تقرع بسرعة ومن دون توقف. لقد بالغت كثيراً في ردة فعلها. فلقد شعرت بنفسها ممزقة بين ذرف الدموع أو الصراخ. برغم أنها لم تكن تعي نفسها أو بعض قلقها ويأسها في عينيها العاصفتين، ولم تكن تدرك ذلك.

«أجل، قادرة جداً.» وافقها سيلاس بجفاف، بقسوة أخمدت ثورتها وجعلتها تنظر إليه مباشرة.

لولا معرفتها به لكانت على وشك أن تعتقد بأن نبرة صوته حملت الكثير من الهزء والسخرية منها.

لكنه بدا وكأنه... وكأنه ماذا؟ كأن معرفته باستقلاليتها واعتمادها على نفسها تصادمت بقوة مع خوفه عليها وتوقه لحمايتها، وكأنها تصادمت مع أمور هو نفسه يجهل وجودها فيه حتى الآن.

هذا مضحك. لا بد وأنها تتخيل كل هذه الأمور. قالت لنفسها بحزن.

«في الحقيقة، ما كنت أحاول قوله، هو أنه يمكننا معاً أن نحركه من دون أن يصاب أحد منا بأذى.»

احمرت وجنتاها قليلاً وكأنه تعبير عن اعتذارها. ولأول مرة شكرت هيزل ربها على هذه النعمة، فهي لم تكن لتستطيع دفع نفسها لأن تتلفظ بأي نوع من الاعتذار الكلامي. شعرت بانها مازالت ضعيفة جداً، رقيقة جداً. كانت تدرك بوضوح كم كانت قريبة ليلة البارحة من أن تجعل نفسها تبدو كالبلهاء الصغيرة. لم تستطع مجرد التخيل كيف كان من الممكن أن تكون ردة فعله لو

أتهمته بصراحة بأنه كان غير وفيّ لكاتي. هل كان سيضحك من تعليقها أم كان سيغضب. توقعت منه ردة الفعل الثانية. لقد كان ذكياً كفاية لأن يتغاضى عن الرأي الذي كونته عنه بعد أن اعتقدت أنه متورط عاطفياً مع كاتي. لكنها شكت بأنه سيسر بهذا الرأي.

«لست متأكدة إذا كانت هذه الغرفة سوف تلائم...» بدأت تقول مترددة وعبست عند استعراضها للغرفة والأماكن التي يمكنها أن تضع فيها الكتب، متسائلة بقلق أين باستطاعته وضع المعدات الالكترونية التي قد يحتاجها.

كانت النظرة التي ألقاها عليها تهكمية. «لقد عملت بنجاح في أماكن أكثر ضيقاً من هذه. في الواقع إن هذه الغرفة مترفة حقاً بالنسبة لي. السبب الوحيد الذي جعلني أغادر شقتي في لندن والعيش في إحدى الضواحي هو ضيق مساحتها. أما غرفتي في الجامعة فكانت مقبولة نسبياً. من حسن الحظ، أنا لست ممن يرغب في جمع التحف والممتلكات، أو بالأحرى لست بواحد منهم لغاية الآن. عندما بدأت بمهنتي هذه عملت جاهداً، عشت، واستقررت، في غرفة في بيت أختي كانت قد تكرمت بها عليّ هي وزوجها من دون أن يطلبا مني أي إيجار. وعندما انتقلت للعيش فيها. اعتقدت أني سوف أتمتع فيها ببعض الخصوصية والعزلة، لكني اكتشفت وبعد أن قضيت عدة شهور، أني أسمع بشكل مستمر، أصوات أقدام أبناء أختي على السلالم. إني افتقد لهم ولرفقتهم أكثر مما اعتقدت يوماً أني سأفعل.»

عبست هيزل به وتساءلت: لماذا كان يسر إليها بمثل هذه المشاعر الخاصة؟ ماذا كان يحاول إخبارها؟ إنه رجل لم يضع بعد جذوراً له؟ حسناً إنها بطبيعة الحال تعرف ذلك، لكنها افترضت أن ذلك بناءً لاختياره الشخصي. الآن...

دفعت شعرها عن وجهها وسألته بفضول. «إذا كنت تشعر على هذا النحو، لماذا إذن لم...؟»

«لم أتزوج؟»

سجلت عيناها: السؤال الذي كانت على وشك أن تطرحه، وكان لماذا لم ينتقل للعيش بقرب عائلته، لكنه لم يسمح لها بانهاء سؤالها وأساء بشكل واضح استنتاج ما تريد قوله. لم تكن أبداً لتسأله أو لأن تتدخل بأموره الشخصية.

«السبب الأساسي أني كنت بكل بساطة منشغلاً جداً. فقيراً جداً، أما في ما بعد... حسناً، أعتقد أن ما يقال صحيح، إنه مع تقدمنا في العمر، العجب لا يعود يعجبنا. ولا تعود الرغبات الحسية تشكل الدافع الأهم للزواج بل يطلب المرء المزيد... يريد أكثر من ذلك بكثير. يريد شخصاً يكون حقيقةً، شريكاً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. شقيقتاي كلتاهما تعيشان بسعادة عارمة في زواجهما. إنهما مغرمتان جداً بزوجيهما. أحسدهما على علاقتهما الزوجية وإني بالطبع لن أقبل بأقل من ذلك. لقد كانتا محظوظتين جداً وجاهدتا للحفاظ على زواجهما. لكن ماذا بشأنك؟ امرأة شابة وحيدة، مع ابنة صغيرة تعملين على تربيتها... لا بد وأنك قد مررت بفترات شعرت فيها بحاجتك للزواج. حتى ولو كان هدف ذلك فقط تأمين والد لكاتي.»

لقد كان صريحاً جداً معها، مما جعلها عاجزة عن الكذب عليه.

«أجل، مرّت بي مثل هذه الفترات.» وافقت بصدق. وأردفت: «ولو أنه في حالتي... حسناً، لقد نعمت كاتي بجدّ يحبها. لقد كان رجلاً مميزاً. لكنه كان متحفظاً جداً بعد الذي حدث لي مع

والد كاتي...» عضت شفتها عاجزة عن متابعة حديثهما، خافت من أن تكون قد قالت الكثير.

«أجل؟» حثها سيلاس بنعومة على متابعة حديثها، محدقاً إلى وجهها.

«إنه، حسناً...» توقفت قليلاً، تحاول أن تختار بعناية الكلمات التي ستجيبه بها وتضعه عند حده، لكنها عادت وبدّلت رأيها بسرعة. لماذا لا تقول له الحقيقة بكل بساطة؟ وعندما سيستنتج من حديثها كم هي بعيدة عن خبرات الحياة بالمقارنة مع خبرته، حتى ولو كان قد ندم على الوعد الذي قدمه لها البارحة، كان سيغير رأيه بكل تأكيد.

«لو أنه لم يقل ذلك أبداً، إلا أن والدي كان قلقاً من أن... من أن يعيد التاريخ نفسه.»

قطب جبينه بشكل واضح وارتسمت على وجهه علامة استفهام، مما دفعها لأن تصر على أسنانها وتوضح له بيأس: «كان مقتنعاً بأن ما حدث يوم حملت بكاتي أنه... مجرد حادث عرضي، لكنه كان متحفظاً جداً. والخطأ الذي ارتكبته سبب له صدمة عنيفة. أعتقد أنه شعر بأن ما حدث... قد يحصل مجدداً. وإني قد أكرر...»

«إنك قد تكررين، ماذا؟»

«إني قد أعاود الكرّة وأنجب طفلاً آخر.» أجابته هيزل بصوت أجش وتابعت: «إني قد أكرر الخطأ الذي وقعت فيه مع جيمي، وأصبح حاملاً من جديد، من دون أن أتزوج.»

ساد بينهما صمت طويل قبل أن يقطعه سيلاس، ويسألها بتعجب: «لكنك لم تكوني قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرك، عندما حملت بكاتي. وجيمي لم يكن أكبر منك إلا بسنة واحدة،

كما أعرف. كنتما طفلين كلاكما، والذي حصل كان يجب أن يكون دافعاً لنضوجك، لتحقيق طموحك، فقد أحسنت التأقلم مع تلك الوضعية المأساوية.»

«لقد تلقيت المساعدة من والدي. فلقد كان رائعاً. لقد وقف إلى جانبنا أنا وكاتي، دعمنا مادياً. أمن لنا منزلاً يحمينا.»

«كما أجبرك على نمط عيش، كراهية؟» سألها سيلاس بعبوس.

عضت هيزل على شفتها في محاولة دفاعية. «فعل ما اعتقده الأفضل لنا. وأستطيع أن أتفهم وجهة نظره...»

«وأنت لم ترغبي ولو لمرة واحدة في كسر قضبان ذلك السجن الذي سجنك فيه طويلاً؟ ألم ترغبي ولو لمرة واحدة في أن...»

«لم أرغب بماذا؟» سألته هيزل بصوت أجش، جرحت مشاعرها نبرة الغضب التي اعترت صوته: «أن أنخرط ببعض العلاقات الحميمة؟ لا. لم أرغب أبداً في القيام بذلك. والآن أعذرني، من الأفضل أن أذهب لأحضر لك الفطور.» أضافت باقتضاب كي تغير الموضوع: «يجب أن أذهب إلى السوق اليوم، بعد أن أنتهي من ترتيب هذه الغرفة. هل ستستعمل كومبيوتراً أو آلة كاتبة أو أي شيء من هذا القبيل؟»

«أجل. يمكنك أن تدعيني أهتم بترتيب الأمور المتبقية. إني أعرف حقاً كيفية استعمال منفضة الغبار ومسحوق التنظيف.»

عندما مرت بجانبه بدا لها وكأنه يريد أن يمسكها، يقف ما بينها وبين الباب ويسد عليها الطريق، لكن ما أن وقفت أمامه وحملقت به، تجمّد فوراً وقال لها ببساطة: «ليس عليك أن تزعجي نفسك من أجلي، تعلمين ذلك.»

«لا حاجة لي على الاطلاق.» وافقته باقتضاب وتابعت: «كما أني لا أنوي القيام بذلك.»

كانت غاضبة منه وتعاقبه على ما ارتكبته هي من حماقات، لأنه وبطريقة ما دفعها لأن تكشف أوراقها أمامه، دفعها للوثوق به والاعتراف له بأمور لم تعترف بها لأحد من قبل.

كان عليها بالأحرى أن تعاقب نفسها على تهورها لا أن تعاقبه هو، همست لنفسها وهي في طريقها إلى المطبخ. ليس الذنب ذنبه إذا كان سهل المعاشرة، صريحاً جداً... من السهل جداً الوثوق به.

بحق السماء، كيف ينظر إليها الآن بعد كل تلك الحماقات التي تفوهت بها؟ تساءلت هيزل بحنق: كيف ينظر إلى حياتها الموحشة المنعزلة منذ أن حملت بكاتي. لم يكن لديها أي أجوبة على هذه الأسئلة. من المحتمل أنه يشعر بالشفقة عليها.

من المحتمل أنه الآن يشكر حسن حظه لأنه عَلِم الحقيقة قبل فوات الأوان. الآن، ليس لديها أدنى شك في أنه قد لا يفي بالوعد الذي قطعه لها.

إذاً، لِمَ شعرت فيما هي تحضر القهوة، برغبتها في البكاء بدلاً من شعورها بالراحة؟

الفصل السادس

«يا للسماء، لم أرك منذ زمن بعيد، كنت مشغولة، أليس كذلك؟»

صرت هيزل على أسنانها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مصطنعة ومقتضبة عندما التفتت ورأت شيلا سمبسون تحدق بفضول إلى عربة المشتريات المليئة بالحاجيات التي ابتاعتها.

من بين كل الأشخاص المحتمل دخولهم إلى السوبر ماركت ومقابلتهم، شيلا كانت آخر واحدة تتمنى أن تلتقيها. كانت شيلا المرأة الأكثر ثرثرة في المنطقة كلها، امرأة حادة متسلطة في الأربعين من عمرها، تدير حياة عائلتها المتكاملة ظاهرياً، وحياة زوجها بيد من فولاذ. وكانت بالتالي تحتقر وتستهزىء بحدة وعلنية بمن لا يوافقها ويقتنع بمعاييرها المتبعة.

كانت هيزل دائماً على علم بنوايا شيلا وشكوكها العميقة بها.. السبب الأول كونها ما زالت عزباء وتعيش بمفردها، أما السبب الظاهري الثاني فهو لأن هيزل تبدو صغيرة جداً لكي يكون لها ابنة بعمر كاتي.

«هل تنتظرين زواراً؟» سألتها بلهجة لا ينم عنها إلا صداقة مزيفة ورمقت عربة هيزل المليئة بالأغراض.

«ليس تماماً.» أجابتها هيزل ببرود.

«آه، لا بد وأنك قد بدأت مبكرة بالتسوق لعيد الميلاد، كما أعتقد.» مازحتها شيلا وأضافت: «طبعاً سوف تستقبلين كاتي في البيت على العيد، أليس كذلك؟»

من بين عادات شيلا المتكلفة الكثيرة، كما أخبرت الجميع

بخبث، أنها ترفض أن تنادي الأشخاص بأسمائهم المصغرة الأصلية، هيزل لم تزعج نفسها قط باخبارها بأن كاتي هو اسم ابنتها الأصلي. واسمها بالكامل هو كاتي جورجينا اسم جورجينا نسبة لإسم والدها حيث أن اسم عائلة جيمي كان جورج.

دفعت هيزل بعربتها ومرت شيلا من دون أن تلقي عليها أي نظرة، إيجابية كانت أم سلبية، رداً على سؤالها الغريب. في واقع الأمر أن هيزل شعرت بالذنب كونها خبأت الحقيقة عن شيلا والأسخف من ذلك أنها كانت تعلم جيداً كم هذه المرأة فضولية، وكيف ستثرثر لو علمت الحقيقة.

إنها في السادسة والثلاثين من عمرها، بحق السماء، وإذا اختارت أن تدعو أحد الأشخاص من الجنس الآخر للمكوث معها لفترة قصيرة من الوقت فلن يكون من شأن أحد التدخل فيه. هذا شأنها وحدها.

فضلاً عن ذلك، تستطيع أن تتصور كيف أن شيلا سوف تضخم الحقيقة وتصقلها، كيف ستبلغ الجميع، وتعلن الخبر بعد أن تضيف إليه بعض التعليقات الحارة في حين أنها تعرف حق المعرفة وبشكل مؤذ أنه ليس هناك ما يدعو لهذه التعليقات كما أن العلاقة التي تربطهما بريئة كلياً.

سمعت هيزل سابقاً عن أعمال شيلا. كانت متخصصة في افتعال المتاعب.

لكن ما الذي يهمها لو أن الناس تناولوها بثرثراتهم؟ سألت نفسها لاحقاً وهي في سيارتها بطريق العودة. والدها قد مات وبالتالي لن تجرحه مثل هذه الثرثرات. كاتي كانت متفتحة جداً وفتية جداً مما قد يدفعها لأن تقابل بالضحك والاستهزاء مثل

هذه الإيماءات التي تربط أمها بعلاقة حميمة مع أحدهم، أما بالنسبة لمشاعرها الخاصة، فهي بالطبع تهتم بأصدقائها الحقيقيين، ولتفكيرهم بها، فهم أدرى الناس بها وبأخلاقها وطبعها مما يخولهم الحكم على ثرثرات شيلا. وبالإضافة إلى ذلك، طالما دفعوها أكثر من مرة لأن تخرج من عزلتها وتمتع نفسها، حتى أن إحداهن قالت لها مرة بشكل فظ: «أخرجي وجدي لك رجلاً، واستفيدي مما أغدقته عليك الطبيعة من جمال قبل فوات الأوان.»

مع ذلك، من يعرف؟ ربما كانوا على حق، وهي التي على خطأ، لربما عاشت طويلاً مع والدها حتى أنها تبنت تفكيره ووجهات نظره من دون أن تدري.

العديدات من صديقاتها المطلقات وغير المتزوجات غرقن بسعادة بالعديد من العلاقات ولم يشعرن أبداً بالخجل أو بالاحراج من القيام بذلك، ولمَ عليهن الشعور بذلك؟ لقد كن كما كانت هي. وحيدات ويعتمدن على أنفسهن. أسلوب حياتها كان غير طبيعي إذا ما قورن بأسلوب حياة امرأة جميلة وقادرة في مثل عمرها. ربما لو كانت أكبر سناً عندما حملت بكاتي، ربما لو أن تجربتها مع جيمي كانت تختلف، لما كان عليها أن تخضع بمثل هذه السهولة لرغبات والدها، أو أن تكبح رغباتها الخاصة حتى قبل ولادة كاتي أو أن تتحكم بقسوة بكل نبض للتعبير عن رغباتها التي اختبرتها مع جيمي، لدرجة أصبحت تلك طبيعة ثانية لها، أصبحت شيئاً قامت به من دون أن تتساءل إذا كان عليها ذلك أم لا.

ربما، على الأقل، هذا ما فعلته في السنوات التي مرت منذ موت والدها. لم تكن حذرة جداً في مراقبة نفسها، لأنها اعتقدت

وبسخافة، بأن في ذلك العمر لا بد وأن تكون تخطت تلك، الرغبات الحادة، والوحدة التي طالما نغصت عليها عيشتها في العشرينات. أو لأنها نشأت وحيدة ولم تلق العناية والحنان الكافيين خلال حياتها. لم يكن لديها أدنى فكرة عن أي من نقاط ضعفها هذه هي وراء ردة فعلها وتجاوبها مع سيلاس.

عندما عادت إلى المنزل، لم تكن سيارة الجاغوار متوقفة مكانها أمام الباب. حدقت إلى المكان الخالي وبدأ قلبها بالخفقان. لربما غير سيلاس رأيه ورحل، حتى من دون إخبارها! ماذا لو رحل؟ ألا يكون ذلك أفضل لها؟

كل الوقت الذي استغرقه عبورها الممر الصغير وأثناء محاولتها فتح الباب الخلفي، كانت، تحدث نفسها عن شعورها بالراحة لو أنه رحل... إن عمله هذا سيكون العمل الأكثر عقلانية، إنها لن تنزعج، ولو قليلاً، من ذهابه... ولكن، وبعد أن فتحت باب المطبخ ودلفت إلى الداخل ورأت تلك الورقة الصغيرة التي تركها لها على الطاولة، شعرت بارتجاف يديها وهي تحاول لمسها، القت نظرة سريعة عليها وشعرت بجفاف حلقها وتقلص معدتها.

«ذهبت إلى تشستر لأرى إذا كان باستطاعتي أن أستعير بعض المراجع التي احتاجها من المكتبة.»

بعد أن قرأت القصاصة، شعرت بدوار بسيط في رأسها وبضعف في ساقيها. سحبت كرسياً وجلست عليه واعترفت لنفسها بأن ما خبرته منذ لحظات لا يمكن أن يكون شعوراً بالراحة. طبعاً ليس كذلك، وهي طيلة الوقت الذي صرفته في توضيب الحاجيات التي اشترتها كانت اذناها مشنفتين لسماع هدير سيارته، لسماع وقع قدميه، لسماع صوته.

عندما انتهت من عملها كان مايزال غائباً، وما انفكت تراوح في المطبخ، غير قادرة على القيام بأي عمل.

«بحق السماء.» فقدت صبرها وصرخت وأردفت: «أنت امرأة في السادسة والثلاثين من عمرك وتتصرفين كفتاة في السادسة عشرة. أي كان، قد يعتقد أنك قد وقعت في حب هذا الرجل.»

تجمدت في مكانها وارتجفت فجأة.

ما أسخف تفكيرها. طبعاً لم تقع في حبه، لقد كانت كبيرة جداً لتقترف مثل هذه الحماقات. عقلانية جداً، امرأة في مثل عمرها لا تقع في الحب أبداً. وفضلاً عن ذلك، فهي ما كادت تعرفه.

ما لبثت أن وجدت نفسها تفضي إليه بأسرار كثيرة لم تخبرها حتى لأقرب صديقاتها وأوفاهن.

هذه الحقيقة التي ارتسمت أمامها كانت بمثابة من يضع يده على جرح أليم حاد، كانت شيئاً تنجذب إليه أفكارها مهما حاولت أن تتغافل عنه.

«أنت تعرفين ماذا تفعلين، أليس كذلك؟» نهرت نفسها بنبرة جافة وأردفت: «وأنت في طريقك للوقوع في حبه، أيتها المرأة الغبية.»

دخلت إلى غرفة المكتب، مصممة على أن تنهي عملها. فمثل هذه الأفكار لا يتغلب عليها ويخفيها إلا عمل جسدي مرهق. لكن عندما عمدت إلى فتح باب الغرفة وخطت خطوة داخلها تجمدت في مكانها بذهول.

وجدت أن كل شيء في الغرفة، نظيف، يلمع. لاحظت أن زجاج النافذة والسجادة الصغيرة أضفيا اشراقاً عليها، وقطع الأثاث أصبحت، كل في مكانها. النار تشتعل في المدفأة القديمة

ولمعان سلة الحطب النحاسية يبهر العيون. ورزح على طاولة المكتب القديمة جهاز كومبيوتر متكامل.

الشيء الوحيد الذي كان ينقص الآن، هو الستائر النظيفة. لكن، حتى من دونها كانت الغرفة تبدو جميلة أنيقة، على الرغم من أثاثها القديم.

من المؤكد، أن سيلاس لم يبالغ حين ذكر قدرته على استعمال مساحيق التنظيف ومنفضة الغبار، ولكن هيزل ولسبب ما بدلاً من أن تشعر بالراحة لأنها تخلصت من مهمتها الشاقة في ترتيب الغرفة، شعرت بقليل من الحزن يغمرها. وحتى أنها شعرت بما يشبه الاستياء لأن سيلاس ما قام بتنظيف الغرفة بنفسه، إلا ليفهمها بطريقة رقيقة وغير فظة بأن لا حاجة له بمساعدتها وأنه يستطيع كلياً الاعتماد على نفسه وأن ليس لها مكان في حياته.

لكنها تريد مكاناً لها في حياته. لا تريد بأي شكل من الأشكال أن تتورط مع رجل، وفي حين يستطيع منحها احساساً قصيراً بالمتعة، لا يستطيع أبداً اشباع أعمق حاجاتها العاطفية وأهمها، لا يستطيع أبداً منحها علاقة الصداقة أو الاستقرار العاطفي، الحب الذي طالما انكرته على نفسها، الذي أرادته، لكن في الواقع...

كفي عن ذلك حالاً، حذرت نفسها وشعرت برعشة تمتلكها. مثل هذه الأفكار لا تقود إلا في اتجاه واحد. مثل هذه الأفكار لا تقود إلا إلى طريق الألم والحزن، إلى الشعور بالعذاب الذي لن تصل من خلاله إلى شيء.

كانت مقتنعة بأسلوب حياتها، حسناً، مقتنعة عقلياً... مقتنعة بأنها تنعم بحياة هانئة لا تنعم بها أي امرأة في مثل عمرها. عندما تفكر، كم من صديقاتها، كم من النساء اللواتي تعرفهن،

هن حقاً سعيدات في حياتهن الزوجية، كما توقعن أن يكن عندما أقدمن على هذه الخطوة؟ ليس العديد فهي، وفي حين كانت أحياناً تحسدهن على أزواجهن، كانت تجد نفسها تستمع لشكواهن واحباطهن، وتفكر بأنها لربما، هي أكثر حظاً منهن.

العلاقة التي طالما حلمت بها وتاقت إليها كانت وهمية ومن نسيج خيالها، ليس لها وجود... ولا يمكنها أن تتحقق. لا يوجد أي شخص يستطيع أبداً الوصول إلى تحقيق عواطفه ورغباته الشخصية فوراً وكما يريد، فقط الأغبياء هم من يعتقدون أنه في امكانهم القيام بذلك.

لكن بعضاً من صديقاتها يتمتعن فعلاً بالسعادة، ويشعرن حقاً بالاكتفاء ويعرفن بسرور أنه عندما دخل زواجهن عتبة النضوج دخلن في علاقة جديدة مع أزواجهن مختلفة جداً عما تصورنه في البداية. هذه العلاقات كانت علاقات حسنة، أزواجهن كانوا رجالاً من الممكن الاعجاب بهم، أو حتى الوقوع في حبهم، على الرغم من الفروقات التي قد يكتشفنها أو خيبات الأمل التي قد يشعرن بها.

استدارت من دون وعي نحو النافذة. هل كانت حقاً مقتنعة بامضاء بقية حياتها وحيدة؟ كاتي، عليها أن تعيش حياتها الشخصية، وهي لن ترغب مطلقاً في أن تقيد ابنتها بها حتى ولو كان ذلك ممكناً.

إذاً ما هي الخيارات الأخرى التي لديها؟ علاقة متينة، آمنة مع أحد الرجال الذين سبق لها أن تعرفت عليهم، مر في خاطرها اثنان أو ثلاثة من معارفها. كانوا قد أسروا لها بصراحة بأنهم يطمحون إلى أكثر من مجرد بناء صداقة معها. فقد كانوا أحراراً ويتوقون إلى الالتزام بارتباط معها.

كانت تراوح في الغرفة من دون توقف، المشكلة كانت أنها قد اعجبت بكل من هؤلاء الرجال الثلاثة لكنها حقيقة لم ترغب بأي منهم... لم تشعر بأي رغبة حيالهم... لم تكن تستطيع التخيل أنه قد يربطها بأحدهم تلك العلاقة الحميمة الخاصة، التي من الممكن أن تنشأ بعد الزواج.

إذاً، ما الذي يتبقى لها؟ أن تبني علاقة... أو عدة علاقات... لا، هذا النوع من العلاقات لم يعجبها قط. ومع أنها كانت تستمع بفضول، وأحياناً بعدم تصديق، لأخبار أكثر صديقاتها انحلالاً في وصفهن لعلاقاتهن. كانت كلما سمعت المزيد، تشعر بالأسى لجهلها أموراً كثيرة، لمعرفتها أنها بمقياس السنين قد أصبحت امرأة ناضجة ولكن بمقياس الخبرة لم تكن إلا مراهقة جاهلة لم تتجاوز السادسة عشرة.

أدركت أنها، مهما سمعت عن تجارب الآخرين وميزاتهم، لن تعوض النقص في خبراتها وتجاربها. أي رجل يريد أن يصطحبها، قد يفترض تلقائياً أن لديها المعرفة الكاملة والخبرة وخاصة المسنين منهم، كما أخبرتها صديقاتها، الذين هم أنانيون، ومتطلبون جداً.»

لم تعلم هيزل لماذا لم ترغب مطلقاً، حتى ولو لمرة واحدة، بأن تتورط مع شبان أصغر منها سناً.

ربما لأنها تنقصها الثقة بالنفس.

لا، ما أرادته...

ما أرادته حقاً هو سيلاس.

زحفت الفكرة إلى رأسها كالأفعى، مما جعلها ترتجف فجأة وتلف ذراعيها حول جسمها، وكأنها تحاول بذلك السيطرة على ألمها الداخلي، فمع ادراكها، بأنها لا تفكر إلا بسيلاس، اغمضت

عينيها لتستعيد ذلك الشعور الذي اعتراها عندما عانقها سيلاس لأول مرة، حيث شعرت فوراً أنها تتوق إليه. أنها تريده.

هذا ليس حباً، قالت لنفسها، بل هذه نزوة. ولعل أفضل ما عليها أن تفعله هو أن ترافق هذا الرجل إلى النهاية حتى تفرغ ما تكتنزه في داخلها.

ترافقه إلى النهاية. بدأت ترتجف وشعرت بارتعاش داخلي، من جراء قوة تلك المشاعر التي اجتاحتها، مدركة خطورة تلك الأفكار الواهمة التي تعتمل في داخلها، مؤكدة لنفسها في كل مرة أنها طبعاً لن تقوم أبداً بمثل هذا العمل.

العلاقات العاطفية، المؤقتة ليست من طبيعتها. كانت متأكدة من ذلك. وإلى جانب ذلك... ربما الآن ليس لسيلاس نفسه رغبة الآن. إذا لم يصدمه تصرفها البارحة معه، فان الاعترافات السخيفة التي أدلت له بها هذا الصباح، تلك التي من خلالها القت الضوء على مدى تحفظها، ستقوم بهذه المهمة!

أجل. إنها الآن آمنة كفاية من الضغوط العاطفية التي قد يقوم بها سيلاس.

لكنها تساءلت: هل هي في مأمن من نفسها، أو أن قدرتها على ضبط النفس والتعقل أخذت بالتآكل؟

إذا كان الأمر كذلك... تنشقت نفساً عميقاً، فليس عليها الآن إلا أن تحتفظ بمسافة كافية تفصل ما بينها وبين سيلاس، كما يجب أن تبدأ بذلك.

قد لا يكون لديها أي عمل في المكتب، لكن ما زالت غرفة والدها تنتظرها حيث كان عليها توضيب السرير والحمام الخاص بالغرفة وملء الخزائن بالمناشف.

قد ينتقل سيلاس إليها الليلة، حيث يصبح بامكانه التمتع

ببعض الخصوصية، وذلك بمكوثه في الجهة المقابلة من المنزل، أي بعيداً عنها. سوف يكون له حمامه الخاص. وبالتالي لن تكون مجبرة بعد اليوم لأن تدخل حمام بيتها الرئيسي لتجد أريج عطره ما زال عابقاً فيه... وتصبح بعد ذلك مضطرة لتحمل التفكير اللاعقلاني والحسي به.

كفى، عنفت نفسها وهي متوجهة إلى الطابق العلوي، بحق السماء، كفى.

كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف، وما أن اعتقدت أن سيلاس، وكنتيجة لرفضها له، جرحها لشعوره لن يعود إلى المنزل قبل العشاء، حتى سمعت محرك سيارته يتوقف أمام المنزل.

لم تكن قد غيرت بعد سروالها المتسخ الذي ارتدته منذ الصباح الباكر ومع أنها كانت تضع لمسة خفيفة من المكياج إلا أنه لم يكن إلا مكياجها الصباحي الذي طالما اعتادت على وضعه. لكن ليس هناك من سبب على الأطلاق يدفعها لأن تبذل جهداً إضافياً لتبدو جذابة بالنسبة لسيلاس. ليس هناك من سبب على الاطلاق لذلك، لكنها وقبل أن تتوجه إلى الطابق الأرضي ألقت نظرة ناقدة على نفسها في مرآة غرفتها. فكرت بحزن بأنها لا بد وأن تكون في أمان تام من سيلاس، وأنه لا يوجد رجل على الاطلاق يتمتع بذوق رفيع، يعجب بامرأة لا تتجاوز قامتها الخمس أقدام ترتدي سروال جينز قديماً وبلوزة فضفاضة ضخمة وشعر مشعث بخصلات غير مرتبة. لكن ما لم تستطع أن تراه وما كان واضحاً وجلياً للغير هو بشرتها النضرة المشرقة ووجهها الفتي وجسدها الشاب، خصلات شعرها الحريرية الناعمة، والنداء الذي يطلقه القسم الأعلى من جسدها الأهيف وسروالها الضيق الأنيق.

لا، لا يوجد شيء على الاطلاق في مظهرها قد يدفع سيلاس للاعتقاد بأنها قد غيرت رأيها، قررت ذلك بحزم وهي متوجهة إلى الطابق الأرضي.

عندما وصلت إلى المطبخ، كان سيلاس واقفاً، ينظر إليها وفي عينيه تعبير غامض لم تستطع فهمه.

اعتقدت أن ما رأته لم يكن إلا نظرة تسلية يحيطها بها وبالتالي لم تستطع اخفاء تعجبها عندما علق برقة: «هل تعلمين، لقد نسيت كم هو ممتع أن نجد شخصاً ما ينتظرنا عند عودتنا. لا تشعرين بهذه المتعة فعلياً إلا إذا اخترت العيش وحيدة.» توقف قليلاً وقبل أن تستطيع جمع أفكارها للتلفظ بأي كلمة تابع مفكراً: «لا بد وأنك تفتقدين والدك، وكاتي.»

هل كان يشفق عليها؟ كامرأة وحيدة تعيش بمفردها؟

نظرت إليه، محاولة الدفاع عن نفسها، لكنها لم تر في عينيه أي أثر للشفقة أو السخرية، فما كان منها إلا أن اعترفت بصوت أجش: «في الواقع، إني أفتقدهما.»

«ما زلت شابة جداً ويمكنك أن تتزوجي. وتنجبي المزيد من الأطفال...»

فتحت فاها اندهاشاً.

«إني في السادسة والثلاثين.» اعترضت قائلة، غير قادرة على اخفاء دهشتها.

«وماذا يعني ذلك؟ في أيامنا هذه، يوجد نساء انجبن طفلهن الأول في الأربعين، نساء أمضين الفترة الأولى من حياتهن غارقات في أعمالهن ومهنهن، لكنهن اكتشفن أن المهنة ليست بكافية، وأنهن بحاجة لعائلة. أو أنك لا تريدين المزيد من الأطفال؟ أستطيع أن أفهم السبب الذي قد يمنعك من

اتخاذ زوج لك.» قال بغرابة ثم أضاف: «لكن انجاب أطفال...»

أطفال... لم تفكر أبداً بهذا الموضوع على الأقل... حسناً، أجل، فكرت بهذا الأمر عندما كانت كاتي فتاة صغيرة، لكن ما أن بلغت كاتي سن المراهقة... والآن... حسناً، لم تفكر إلا بالأحفاد الذين قد تنجبهم كاتي يوماً ما، لم تفكر يوماً بأولاد، هي تنجبهم، ومع ذلك، فقد سمعت تعليق سيلاس عن وجود نساء أكبر منها يؤسسن عائلات وينجبن أطفالاً.

«أنا... أنا لم أفكر مطلقاً بهذا الموضوع.» همست قائلة بعد أن أشاحت وجهها. وأردفت: «بالتأكيد لا أشعر بأي حاجة لأن أنجب طفلاً آخر ليعيش بدوره من دون والد. لقد حالفني الحظ عندما انجبت كاتي. لم تلمني أبداً، لأنها نشأت من دون أن تتعرف إلى جيمي. كما أن عائلة جيمي طالما رحبت بها وأحبتها.»

«هل أحببته كثيراً؟»

أجفلها سؤاله. لم تكن معتادة على سماع هذا النمط من الأسئلة. صورة جيمي أمامها الآن. كانت مبهمة آتية من الماضي البعيد، وبالتالي شعرت بصعوبة في تذكر ما كانت تشعر به حيال جيمي، لكنها كانت متأكدة من أنه لم يكن حباً يتبادله امرأة ورجل، وكيف يمكن أن يكون في حين أنهما لم يكونا إلا فتيين.

أجابت بصراحة: «لقد كان صديقي. لقد كنت فتاة مراهقة عاطفية، ربما حدث ذلك لأني عشت وحيدة. جيمي... لقد كان جيمي شخصاً مميزاً كفرد. لكن لا، لم أحبه... كرجل.»

قالت أكثر بكثير مما نوت أن تقول، أظهرت أكثر مما أرادت إظهاره وما أن استدارت ولاحظت نظرة الشفقة القائمة في عينيه

حتى عضت شفتها بغضب وقالت فجأة: «لقد حدث هذا منذ زمن بعيد وما يكاد يهمني الآن. لقد نظفت غرفة والدي لكي تتمكن من استعمالها. يوجد غرفة حمام ملحقة بها. إلا أني لم أحضر شيئاً على العشاء. لم أكن متأكدة من أنك ستعود باكراً.»

طيلة الوقت الذي استغرقته في كلامها وثرثرتها، كانت مدركة بأن سيلاس يراقبها ويتفحصها... كما كان يجب أن يفعل، فكرت بخوف. من دون شك، طالما هو معني بالأمر، كانت بالنسبة له مجرد امرأة غريبة فريدة من نوعها، امرأة ذات تجربة واحدة قادتها إلى إنجاب طفلة، امرأة لم تسمح لنفسها أبداً بأن تعي انوثتها كأية امرأة عادية أخرى. آه، أجل، يجب أن يراقبها بهذه النظرة المتأملة المتفرسة التي جعلتها تشعر بالانقباض... والضعف.

«اعتقدت أنه يمكننا تناول طعام العشاء خارجاً. أواجه مشكلة صغيرة في عملي، فأبحاثي التي أقوم بها اتضح أنها تتطلب الكثير من المعلومات والتفاصيل، مما يدفعني للتفكير بأن أختصر من التفاصيل التي تتعلق بحياة هوغو في هذا الكتاب، ثم متابعتها في كتاب آخر. أحتاج لشخص يستمع إلي بينما أكلم نفسي وأحاول حل هذه المشكلة، وكنت أتساءل، بأنانية، أعرف ذلك، إذا كان يمكنك في مقابل تناولنا العشاء أن تكوني مستعدة، لأن تعيريني، أذناً صاغية.»

«أنا! لكني لا أستطيع نصحك بأي شيء. لا أعرف أدنى شيء عن كتابة الكتب. بالطبع معلنوك وناشرو كتبك...»

قال بهدوء: «رأي آخر طبعاً له قيمة إضافية، وحتى لو لم يساعد إلا في توضيح أفكارك الخاصة، وإلى جانب ذلك، أنت قلت إنك تحبين قراءة المزيد عن هوغو. أنت بطبيعة الحال الآن،

تعرفين الشخصية، فلا تقللي من قيمة آرائك. لا تظلمي نفسك كثيراً.» أضاف ببرود: «إذا كنت غير مستعدة لتقييم قدراتك، فعلى الأقل دعي الآخرين يقومون بذلك.»

صعقها تعليقه ووجدت نفسها غير قادرة على الإجابة.

تابع سيلاس: «لكني لم أحجز في أي مكان، إذ لم أكن متأكداً من أنك ستكونين حرة هذا المساء، أو أنك قد تودين المساعدة.»

بعد أن صاغ دعوته بهذا الأسلوب كيف كان بامكانها الرفض أو الادعاء بأنها مرتبطة مع أناس آخرين؟

أجابته بتردد: «سيكون علي تبديل ملابسي.»

«حسناً... وأنا أيضاً. هل هناك مكان محدد تودين الذهاب إليه؟»

«هناك مطعم إيطالي في نتسفورد، لا أعرف إذا كنت من محبذي الطعام الأيطالي.»

أكد لها قائلاً: «طبعاً. هل تعرفين اسمه؟ أستطيع أن أخابرهم لأحجز لنا طاولة.»

شعرت وكأنها فجأة فقدت السيطرة على حياتها الخاصة فأعطته الإسم قبل أن تتوجه إلى غرفتها.

مضت قرابة نصف الساعة وهي واقفة أمام المرآة تتأمل نفسها عابسة وفي فستانها الصوفي الأحمر التي أصرّت كاتي على شرائها له الشتاء الماضي، والذي كان من بين الفساتين المميزة القليلة التي تملأ خزانة ثيابها. تساءلت: ماذا بحق السماء كانت تفعل.

لقد أوضح لها سيلاس تماماً لماذا أراد مرافقتها ولم تشك ولو للحظة واحدة بأنه كان يقول الحقيقة، لكن ماذا بشأنها... ماذا بشأن دوافعها هي؟ هل كانت حقاً متأكدة من أنها قد

استأصلت من نفسها كل تلك الأفكار المتمردة العنيدة التي طالما هاجمتها لحظة وقوع نظرها عليه؟

أجل بالتأكيد قد فعلت! بالتأكيد قد فعلت.

كان المطعم مريحاً جداً تديره عائلة إيطالية كبيرة. عرفوا هيزل بمجرد دخولها وسيلاس باب المطعم، على الرغم من أنها لم تأكل فيه إلا في مناسبات معدودة.

كان المالك رجلاً إيطالياً جداً في سماته، مستدير القامة، ولطيفاً، هرول إليها مرحباً ثم مالبث أن هتف قائلاً: «آه، وأخيراً رأينا زوج أجمل سيدة تتناول العشاء عندنا. وهي التي تأتي دائماً مع صديقاتها. طالما قلت لامرأتي إن هذه السيدة جميلة جداً لأن تكون وحيدة من دون زوج. كل زبائني الرجال، طالما ذهلوا وانصرفوا عن تناول عشائهم مأخوذين بجمالها.»

شعرت هيزل بأن لونها قد أصبح قرمزياً، لكن ما أن فتحت فاها لتعترض وتصحح له سوء فهمه حتى ضغط سيلاس على كتفيها بخفة.

عندما استدارت، هز رأسه قليلاً وهمس حيث لا أحد غيرها يستطيع سماعه: «لم أكن لأنزعج لو كنت مكانك، إن اعتراضك سيدخلك في المزيد من الارتباك، إلا إذا أردت بالطبع أن تناقشي تعصبه لبني جنسه والإشارة إلى أنه لا يوجد امرأة في هذه الأيام بحاجة لرجل لتشعر أن حياتها كاملة.»

هزت هيزل رأسها نفياً، وهي تتبع ذلك الرجل ذا السمات الإيطالية الوقحة إلى مائدة صغيرة موضوعة في إحدى زوايا المطعم المتفردة، مضاءة بشكل رومنطيقي بحيث أن نوراً خفيفاً انبعث من الشمعدان الموجود على الطاولة.

قالت لسيلاس بتعجب بعد أن سجلا طلبهما: «حتى أني لا أضع خاتم زواج.»

«يجب ألا تدعي ذلك يقلقك.» أجابها سيلاس بعد أن عبس قليلاً إذ رأى أحدهم متوجهاً نحوها.

استدارت هيزل لترى ما الذي سبب عبوسه.

رجل في الخمسينات من عمره، يصطحب فتاة لا يمكن أن تكون أكبر من كاتي جلسا إلى طاولة لا تبعد عنهما إلا عدة أقدام وكان من الواضح أن علاقتهما ليست علاقة أب بابنته.

«حسناً، هذا أمر أستبشع حدوثه.» علق سيلاس بسرعة في حين استدار نحوها، وأضاف: «ولا شك أنك لو سألت أحدهما لأجابك بأن مسألة العمر ثانوية وأن أحدهما يحب الآخر، لكن في بعض الأحيان حجج كهذه تفشل في الاقناع، والفرد يجد نفسه مدفوعاً لأن يشعر بأنه قد اشترى صباحاً ليتباهى به، وأنها هي قد باعت نفسها له لأنه من الأسهل عليها أن تكون صديقة رجل بعمر والدها على أن تعمل في بناء علاقة مع شاب في مثل عمرها.»

دعمت نبرة الاحتقار في صوته كلماته مما جعل هيزل تحملق به مندهشة.

«ألا توافقين على ذلك؟» سألها وهو يراقب ردة فعلها.

«أجل... أجل، في الواقع إني أوافقك الرأي.» استطاعت القول بصعوبة بعد أن تخطت دهشتها وأردفت: «إلا أنه من الغريب جداً أن أسمع رجلاً يدلي بمثل هذا الرأي عن امرأة، أجل لكن الرجال يبدون، وكأنهم يصابون بعمى مطلق عندما يتعلق الأمر بغرورهم. اسأل أي رجل قد تجاوز الأربعين من عمره إذا كان بامكان فتاة في الثامنة عشرة أو في العشرين من عمرها أن

تقع في حب رجل قد تجاوز لخمسين وذلك لأجله فقط، وليس من أجل ممتلكاته، سيجيبك فوراً بالإيجاب، نافياً أية حجة مقنعة قد تواجهه بها لاثبات العكس.»

ساد صمت قصير عندما أتى النادل لتقديم الوجبة الأساسية، وبعد ذهابه اقترب سيلاس منها ليهمس في أذنها بهدوء: «ليس لديك آراء حسنة عن الرجال، يا هيزل، أليس كذلك؟ في الواقع لسنا كلنا عمياناً، وليس العديد منا من يتمتع بذات ضعيفة. ليحاول الحفاظ على تماسكها عن طريق شراء دمية صغيرة جميلة يعرضها على أصدقائه.»

«لا، أعرف ذلك.» وافقته هيزل: «لهذا كنت منزعجة جداً عندما اعتقدت أنك وكاتي...»

توقفت فجأة آه، يا إلهي، ماذا، بحق السماء، كانت على وشك القول؟ لكن الآوان فات... إذ أنه بعد نظرة حادة ألقاها سيلاس عليها، كان يسألها باصرار: «إني أنا وكاتي ماذا، يا هيزل؟»

بحثت بيأس بين أفكارها عن أي شيء تقوله وينقذها من هذه الورطة، لكنها لم تستطع إيجاد أي شيء وخصوصاً أن صبر سيلاس كاد أن ينفد. استطاعت أن تشعر بثقل هذه اللحظات الصامتة التي جاءت بعد طلبه للإجابة على سؤاله. لم يكن هناك من مفر.

حتى ولو أنها استطاعت التوصل إلى مخرج ما، كانت تعرف بأنه ليس لديها الثقة الكافية بالنفس لتجعلها تجهر به وتصل بالتالي إلى اقناعه.

«لقد اعتقدت... لقد فكرت... حسناً، كاتي لم...»

«اعتقدت أني وكاتي حبيبان.» رد سيلاس محاولاً قطع محاولاتها المحرجة للاعتراف كيف أنها أساءت الحكم عليه.

«حسناً، أجل... أجل لقد اعتقدت ذلك، لكن ذلك كان فقط سبباً... حسناً...» تذكرت في الوقت المناسب أنه من المفترض أن تكون هي قد وجهت دعوة إليه للمكوث معها أثناء متابعته لأبحاثه وبالتالي استنتجت أنها لن تستطيع اخباره بالطريقة التي تكلمت بها كاتي عنه أو الأسلوب الذي وصفته به مما دفعها بشكل طبيعي للاعتقاد بأن كاتي كانت متورطة معه عاطفياً، مستبعدة فكرة، أن ما كانت كاتي تقوم به هو مجرد مناورة لتجعلها تقبل باستضافته عندها.

«بسبب ماذا؟» سألها سيلاس باصرار: «هل بدوت لك رجلاً قد يتورط مع فتاة، شابة مثل كاتي؟ مع فتاة صغيرة كفاية لتكون بعمر ابنتي؟»

«حسناً... أنا...»

لقد كان غاضباً منها ولا عجب من ذلك اعترفت لنفسها بحرقة.

«أستطيع أن أتفهم لماذا اعتقدت بأني متعلق بفتاة بجاذبية كاتي وجمالها... لكن ما لا أستطيع فهمه كيف استطعت الاعتقاد بأن كاتي قد تكون مهتمة بي.»

«حسناً... فكرت... فكرت بأنك قد تكون أقل عمراً مما أنت عليه.» قالت مدافعة عن نفسها.

«أقل عمراً.» كان ينظر إليها عابساً وأردف: «أعتقد أن الصور التي لدي في جيب سترتي القديمة قد مضى تاريخها لكني...»

«ومع أن كاتي كانت عقلانية، اعتقدت أنها ربما... حسناً، لقد قلت إن بعض الفتيات بعمرها، يبدين بحاجة لمثال أبوي...»

«بعضهن نعم.» وافقها سيلاس: «ولكن ليس كاتي.»

«إني آسفة إذا كنت قد أهنتك.» اعتذرت هيزل بتعاسة. لماذا

بحق السماء، كان عليها أن تكون بهذا الغباء؟ المشكلة أنها كانت مرتبكة، بتعليقاته حول الرجل المسن والفتاة الشابة، فنسيت أن تحفظ لسانها وتكلمت بعفوية من دون أن تضبط ردة فعلها.

«إني آسف أيضاً.» أجابها سيلاس دافعاً عنه طبقه نصف الممتلىء.

اكتشفت هيزل أنها هي أيضاً قد فقدت شهيتها للطعام. عندما أتى النادل لأخذ أطباقهما، فرمقهما باستياء عندما لاحظ أن أطباقهما ما زالت مليئة بالطعام. مما ضاعف شعور هيزل بالذنب.

«لم أكن لأفكر بأنك قد تتخيلين ذلك. كاتي فتاة جميلة، رائعة، شابة نشيطة وذكية، إنها من نوع الفتيات اللواتي يسر المرء في مرافقتهن طبعاً من الناحية الجمالية، لكن من الناحية الأخرى... فهي لم تزل فتاة يانعة، لكني أنا لست شاباً.»

توقف قليلاً حين كان النادل يتابع التقاط الأطباق.

كل كلمة كان ينطق بها كانت تزيد من شعور هيزل بالذنب والخجل. لو فقد زمام نفسه معها أو ثارت ثائرته لكان من السهل عليها أن تعلم ما يجري. لكنها بدلاً من ذلك استطاعت أن تشعر بمدى احتقاره لها وعدم تصديقه، مما جعلها تشعر بالخجل من غلطتها الفادحة وعدم تفهمها.

عندما ابتعد النادل تابع بجفاف: «كما كنت أقول، لا أشعر عاطفياً بأدنى اهتمام أو أي انجذاب تجاه كاتي... في الواقع...»

لم يكن باستطاعة هيزل مجرد النظر إليه. أدركت برعب حقيقي أن دموعها بدأت تتجمع في عينيها وعلى أهبة السقوط فاحتفظت برأسها منخفضاً محاولة التخلص منها.

كانت الأمسية مشؤومة كفاية ولا تتحمل المزيد من التوتر الذي قد ينشأ عن ذرفها لدموعها.

لكن لا شيء أمكنها فعله لتمنع تلك الدموع الساخنة من أن تجد طريقها وتنحدر بروية لتبلل صفحة وجهها. هذا الوجه الذي تخضب بالدماء الحارة نتيجة لحرجها وخجلها وحتى أنها فوجئت كيف أن دموعها لم تتبخر تحت تأثير تلك الحرارة.

حاولت أن تخفض وجهها أكثر، لكن حركتها جاءت متأخرة بعض الشيء.

سمعت شتائم سيلاس الآتية من خلال لهاثه ثم ما لبثت أن شعرت به يقف ليقول لها بالحاح: «هيا لنخرج من هنا. هذا أمر نحتاج لأن نناقشه على انفراد.»

حاولت أن تقول له إنه ليس هناك أي شيء يستحق المناقشة لكنها بطريقة أو بأخرى كانت تقف على قدميها، ذراعاه تحيطان بها، وتقودانها وتدعمانها، وكأنهما تخفيانها عن نظرات الزبائن الفضولية.

سمعته يقول للمالك وهو يدفع الفاتورة بأن زوجته متوعكة قليلاً.

ما أرادته هيزل بكل قوتها هو أن تخرج من المطعم بأسرع وقت ممكن وليس فقط أن تخرج من المطعم، بل أن تتخلص من رفقة سيلاس أيضاً.

لقد أحرجت نفسها ولا شك أنها قد أحرجته هو أيضاً. ما قالته كان سيئاً كفاية، لكن أن تنفجر باكية على هذا النحو...

تغلغل النسيم الليلي البارد في عروقها مما جعلها ترتجف. فأحاطها سيلاس فوراً بذراعه وشدها نحوه لتنعم بدفء جسده، حركته هذه كادت أن تكون عفوية وكأنهما في الواقع زوجان.

«تشعرين بالبرد، هيا بنا لنعود إلى السيارة.» كان قد أوقف سيارته على بعد عدة دقائق من المطعم. وبرغم أن هيزل حاولت سراً أن تنتزع نفسها منه إلا أنه لم يبد أي رغبة لاطلاق سراحها.

«إني آسفة لقد تصرفت كالبلهاء.» اعتذرت منه عندما وصلا إلى السيارة وفتح سيلاس لها الباب الأمامي.

«لا تعتذري. إنها غلطتي. أنا من أزعجك.»

«لك مطلق الحق لأن تغضب مني.» قالت هيزل وهي تقفل باب السيارة في حين كان هو يدلف ليجلس بجانبها خلف المقود.

«أغضب!» استدار ونظر إليها في حين كان يحكم اغلاق حزام الأمان. عبس بها قليلاً ثم تابع: «أنا لم أكن غاضباً. لقد شعرت بالخيبة، والأهم لأنك قد أسأت الحكم علي، لكني لم أكن غاضباً، يا هيزل.»

«لم يكن يجدر بي أن أقول شيئاً. أنا...»

«أنا سعيد لأنك قد فعلت. في الواقع...» توقف قليلاً، ونظر إليها ثم سألها سيلاس بترقب: «هل تعلم كاتي بأنك تعتقدين أني وإياها حبيبان.»

«أجل.» اعترفت هيزل وأردفت: «لم أستطع مبدئياً فهم السبب لماذا كلاكما لا ترغبان في تمضية الوقت مع الآخر. اعتقدت كاتي أن هذا الأمر يدعو للضحك. أرادت أن تخبرك حينها، لكن... حسناً، أنا طلبت منها أن لا تفعل.»

تأوهت فجأة بعدما اعترتها موجة من الاحباط النفسي والعاطفي.

«أنت متعبة.» علق سيلاس وأضاف: «ولا عجب بذلك، بعد أن حاولت نقل ذلك المكتب اللعين ونظفت غرفة النوم وجهزتها لي.

«إني في السادسة والثلاثين كما تعلم ولست في السادسة والسبعين.» أجابته بجفاف.

كان سيلاس على وشك أن يشغل محرك السيارة إلا أنه توقف عن ذلك وتأملها قائلاً: «هل تعلمين، أنها المرة الأولى التي أسمعك فيها تقولين شيئاً إيجابياً عن سنك؟ أنت تبدين أصغر من العديد من النساء في الثلاثينات من أعمارهن. ومع ذلك تعملين جاهدة لتعطي الناس انطباعاً بأنك أكبر بعشرين سنة من سنك الحقيقية. دائماً وفي جميع استجاباتك أمام الناس، تبدين وكأنك تقولين لهم بأنك بعيدة عن أن تكوني امرأة مرغوبة جداً، بل أنك امرأة قد وضعت خلفها كل انوثتها. في هذه الأيام معظم النساء اللواتي في مثل سنك قد يعتبرنها إهانة إذا علق عليهن أحدهم بالقول بأنهن قد انتهين حسياً.»

أجابته بجفاف: «أنا لست معظم الناس. والدي...»

«احتجزك والدك طويلاً وحزمك عاطفياً بحزام العفة، أجل، إني أعرف.» قطع حديثه ثم تابع بحزم: «ما كدت تبلغين السادسة عشرة من عمرك عندما حملت بكاتي. أنت نفسك لم تكوني أكبر بكثير من طفلة صغيرة، وبعد الانجاب وطيلة الأيام التي انقضت بعدها. أعتقد أنك قد بقيت نائمة حسياً بالضبط كما كنت عندما حملت بها.»

لم تكن هذه المحادثة من المحادثات التي تتجرأ على مناقشتها معه. لقد كانت محادثة خطرة جداً، قد توقعها في زلات لسان هي بغنى عنها.

«إذا كنت على وشك أن تسألني لماذا لم أحاول إقامة أي علاقة في هذه السنوات؟ فجوابي أنه من الواضح أن هذه الدوافع منخفضة جداً لدي، هذا إذا لم أقل إنها غير موجودة.» علّقت

بشراسة وتابعت: «أما الآن هل يمكننا أن نغير الموضوع؟ لقد أتيت بي إلى العشاء، لنتمكن من مناقشة كتابك الجديد.»

«دافع منخفض جداً.» ردد سيلاس جملتها بسخرية متجاهلاً القسم الأخير من خطابها: «م... أو قد يكون والدك جعلك تشعرين بالذنب والخجل من طبيعتك مما دفعك عاطفياً إلى كبت هذه الغريزة في مكان عميق جداً من نفسك.»

«حسناً إنها ليست نهاية العالم ولا يستحق الأمر كل هذه الأهمية الآن، على أي حال، أليس كذلك؟» قاطعته هيزل ثم تابعت: «فضلاً عن ذلك أنا الآن في السادسة والثلاثين من عمري وما أكاد أشعر برغبة في أن...»

«ها أنت تعودين إلى ذلك من جديد.» قاطعها سيلاس: «أنت في الثلاثينات ولا تكادين تشعرين بالرغبة إلى ماذا؟ إلى الوقوع في الحب؟ بحق السماء، لمَ لا؟ الآلاف يقعن... يومياً في الحب.»

«أجل، مراهقات. أناس في العشرينات من...»

«لدي خال. لم يتزوج أبداً، ولم يرغب بذلك مطلقاً، كان قد بلغ الخامسة والستين من عمره عندما كان يقوم برحلة بحرية فالتقى باحداهن، ووقع فوراً في حبها وتزوجها. لقد احتفلا بعيد زواجهما العاشر، وهو الآن يحبها بنفس القوة والزخم اللذين أحبها بهما عندما التقاها للمرة الأولى. وقبل أن تسألني، لا، إنها ليست بفتاة شابة، في الواقع لويز أكبر من خالي فراين بثلاث سنوات. لقد عانت حياة صعبة قبل أن يتعارفا. زوجها السابق عاملها بقسوة ثم تركها مع خمسة أولاد تعمل على إعالتهم. تلك الحياة الصعبة تنعكس قسوتها على ملامح وجهها ولقد كانت رقتها وقدرتها على الاحتمال هما العاملان اللذان جذبا خالي إليها. الحب ليس حكراً على صغار السن، يا

هيزل ولماذا عليه أن يكون كذلك؟ أليس صحيحاً، مهما تناقشنا. إن كل ما يحدث مراراً وتكرار قد يكون عبرة للآخرين. الكبار في السن أيضاً يحق لهم الوقوع في الحب أيضاً، تعلمين ذلك.»

«حتى أولئك الذين تجاوزوا السادسة والثلاثين.» هزت رأسها.

«حتى أولئك الذين تجاوزوا الحادية والأربعين.» أجابها بحنو، مما دفعها لأن تنظر مباشرة في عينيه.

ما فعلته كان خطأ. شعرت وكأن قلبها فقد خفقة من خفقاته ثم ما لبث أن فقد الثانية. فشعرت فجأة وكأنها عاجزة عن التنفس.

هل سيعانقها سيلاس وماذا لو فعل؟ تساءلت برعب: هل ستكون قادرة على ردع نفسها في الاستجابة له؟ هل ستكون؟

حين بدأت تلك الأفكار المجنونة تضرب بأجنحتها جدران تفكيرها المشوش، تقلصت عضلاتها وأحست بانقباض في معدتها، ابتسم سيلاس لها ثم أدار مفتاح المحرك لتشغيله.

لم يكن على وشك أن يعانقها، فكرت بحنق، وحاولت أن تقنع نفسها بأن ليس خيبة الأمل ما تشعر بها، بل أنها كانت مسرورة... أجل، مسرورة لأنه أخيراً أدار المحرك ووضع حداً لتلك المحادثة الخطرة التي دارت بينهما.

عند خروج سيلاس من المدينة واختراق السيارة الطرق الخارجية المظلمة، تثاءبت هيزل مرة ثانية. شعرت بأنها سوف تموت من التعب. طبعاً بعد كل ليالي أرقها واضطرابها العاطفي. مالت برأسها إلى الخلف وألقته على سنادة الرأس في ذلك المقعد الوثير وأغمضت عينيها. فقط لبضع دقائق، لم تكن تريد أن تغرق في نوم عميق. ما أرادته كان فقط عدة دقائق من الراحة والاسترخاء.

• • •

رمق سيلاس ذلك الرسم الملائكي المسجى على المقعد الأمامي، وعبس باستياء بعدما لاحظ الطريقة التي استلقت بها مبعدة نفسها عنه. حتى أثناء نومها كانت تحاول سحب نفسها بعيداً عنه.

لقد أدهشه الليلة ما قالته عن اعتقادها بأنه متورط عاطفياً مع كاتي، لكن على الرغم من سوء تلك الاقتراحات، فقد خسر العديد من الأمور.

هل يبدو كأحمق؟ تساءل وعاد يرمقها من جديد. فهي بالتأكيد تملك كل المشاعر الأنثوية. لن تستطيع التغلب على هذا الكبت؟ لقد وصفت نفسها على أنها تتمتع بدرجة منخفضة في الواقع الحسي. لكن ردة فعلها أعطته شعوراً مخالفاً لذلك، أوصل له رسالة لا تمت لكلامها بصلة.

لكن هل ستتمكن يوماً ما، من أن تتقبل... تتقبل ماذا؟ إنه فعلياً قد وقع في حبها منذ أن وصفتها كاتي له. ولقاؤه الأول بها أكد ما كان قد أحس به؟ لكن حتى ولو قبلت به، هل حقاً ستهتم وتحبه؟

لقد تجاوبت مع عناقه، لكنها كانت استجابة حسية مطلقة ولم تكن حباً. لقد فكر بأن الأمر ما يزال كما لو أن والدها ما زال على قيد الحياة. وبالتالي لن يستطيعا أبداً أن يصبحا صديقين. لقد أذاها كثيراً، وحطم ثقتها بنفسها وألحق بها الضرر، وحتى لو أنه لم يفعل ذلك عن قصد وخبث.

عندما أوقف السيارة أمام المنزل كانت هيزل ما تزال نائمة وعندما ترجل من السيارة وجد المفاتيح التي أعطتها له فذهب وفتح الباب الخلفي للمنزل وبعد عودته للسيارة فتح الباب الأمامي ونطق باسمها بهدوء.

تململت قليلاً في مكانها، عبست وكأنها سمعته يناديها، ولكنها رفضت أن تستيقظ.

المنطق يقول إن ما يجب عليه عمله هو هزها قليلاً ومناداتها بصوت أعلى، لكن متى كان رجلاً مغرماً، يتصرف بوعي ومنطق، وحتى لو كان له من العمر واحد وأربعون عاماً؟ خاصة رجل في الواحد والأربعين، قال لنفسه بخبث وابتسم، في حين كان يميل نحو السيارة ويفك حزام مقعدها، قبل أن يمسكها برفق ويحملها بهدوء بين ذراعيه.

كانت خفيفة كالريشة وحتى أقل وزناً من ابنتها المراهقة، لكنها كانت كذلك أقصر قامة منها. فكر أن أختيه سوف تحبانها، طالما أصرتا عليه ودفعتاه لأن يتزوج، طالما اتهمتاه بأنه كثير التنقل والضوضاء، قائلتين له إنه سيصبح أعزباً عجوزاً لا يطاق.

حين كان يحملها في اتجاه المنزل، بدت وكأنها استكانت بين ذراعيه، تشبثت به وأطلقت تنهيدة وأدارت وجهها تجاه صدره.

احساسه بأنفاسها الدافئة تداعب بشرته جعله يتسمر في مكانه، واعترته موجة عميقة من الشوق والحاجة جعلته يدرك أن الوقوع في الحب لم يكن الشيء الذي بامكانه، ولو كان مبدئياً حكراً على الشبان، أن يغزو رجلاً في الحادية والأربعين من عمره ـ لكن الأسوأ من ذلك وما كان يريده الآن بجنون هو أن يحتفظ بها بين ذراعيه ويعانقها.

لكن حتى وقبل أن يعانقها كان عليه أن يكسب ثقتها، ويعيد بناء شخصيتها وثقتها بنفسها... كان عليه أن يبني جسراً يوصله إليها، أن يبني معها علاقة متكاملة، كان عليه أن يجعلها تعامله كانسان وتحبه لشخصه قبل أن يظهر لها مدى رغبته فيها كامرأة.

أفكاره هذه جعلته ينزلها من بين ذراعيه بسرعة عندما وصل

إلى المطبخ مما جعلها تستيقظ بدهشة وتحدق في عينيه بذهول.

ماذا كان يجري؟ تساءلت هيزل وهي ما تزال شبه نائمة. ما الذي كانت تفعله في المطبخ. قريبة من سيلاس إلى درجة تستطيع معها سماع دقات قلبه في حين أن آخر ما تستطيع تذكره هو جلوسها إلى جانبه على المقعد الأمامي في سيارته؟ أبعدت رأسها عنه وثبت نظرها على باب المطبخ الذي ما يزال مفتوحاً. هل حقاً قطعت كل تلك المسافة وعبرت الباب إلى الداخل من دون أن تنتبه لذلك؟

«لقد حملتك إلى هنا.» قال سيلاس وكأنه قرأ أفكارها وتابع: «لقد حاولت أن أوقظك، لكنك كنت مستغرقة في النوم.»

لقد حملها إلى هنا! رفعت رأسها ونظرت إليه بتعجب. عيناها ما زالتا زائغتين مثقلتين بالنوم، في حين كانت ما تزال تمتص من دفئه. لم تشأ أن تبتعد عنه. أرادت أن تبقى حيث هي. أرادت أن...

نظرت إلى فمه، ونظر إليها سيلاس وعلم أنه إذا لمسها الآن...

تراجع فوراً مبتعداً عنها في اللحظة نفسها التي انتبهت بها هيزل إلى ما كانت تقوم به، إلى ماذا كانت تدعوه. لقد كانت فعلياً تتوسل إليه ليعانقها. لا عجب أنه كان يرمقها بهذا العبوس. ماذا بحق السماء يفكر فيها الآن؟

تراجعت إلى الوراء لا ارادياً، مبتعدة عنه، غير واثقة من أنها قادرة على أن تنظر إليه من جديد.

قالت بسرعة: «إني تعبة. إذا كنت لا تمانع، أعتقد أني سآوي الآن إلى فراشي.»

• • •

كان قد تأخر الوقت، وكانت على وشك النوم عندما تذكرت أنها وسيلاس لم يتناولا طعام العشاء بشكل كاف. بالنسبة لها آخر ما كانت تريده الآن هو الطعام، لكن سيلاس...

إنه راشد الآن، ذكّرت نفسها. إذا أراد أن يأكل شيئاً فهو بالتأكيد سيحضر لنفسه وجبة سريعة قبل أن يذهب للنوم. فيما هي تستغرق في نوم عميق، ابتسمت لنفسها بحزن، تذكرت والدها، الذي قد يصدم لمجرد سماعه اقتراحها بأنه قد يحضر لنفسه وجبة خاصة به، لكن والدها وسيلاس كانا مختلفين، ينتميان إلى الجنس نفسه لكنهما مختلفان جداً.

الفصل السابع

مر أسبوع ثم تلاه الآخر. سيلاس كان غارقاً في أبحاثه وكتابه الجديد مما جعل هيزل لا تراه إلا في المساء حين كان يوافيها ليتناولا معاً وجبتهما المسائية.

لقد اضحت تنتظر بفارغ الصبر تلك الوجبات التي كانت أحياناً تحضرها هي وأحياناً يحضرها سيلاس. والآن كونها هي أيضاً بدأت بعملها بمهمة جديدة، كانا يحضرانها معاً هما الأثنان. لقد أدهشها في بادىء الأمر أن يكون هناك رجل بهذه الرجولة وهذا العنفوان يستطيع أن يكون في الوقت نفسه بهذه الليونة وحسب المشاركة في المنزل. في احدى الليالي الباردة، بعد أن كانت قد حضرت وجبة من تلك الوجبات المفضلة لدى كاتي، فرح سيلاس بها كثيراً وأحب مذاقها وطلب منها أن تكتب له كيفية تحضيرها.

في بعض الأوقات كان يناقش ما كتبه معها، ملخصاً لها العناوين الأساسية، راسماً لها خطة عمله. مانحاً إياها لمحة مذهلة عن طريقة بنائه لقصصه ودمجه الواقع في الخيال، وكانت تمر أمسيات أيضاً لا يكادان أن ينطقا بكلمة. لكن حتى ذلك الصمت كان يسوده جو من الراحة والألفة.

في فترة قصيرة من الوقت تعودت على وجوده معها تحت سقف واحد. هذا ما أخبرت به نفسها في إحدى الأمسيات حين خابرها من تشستر ليقول لها إنه مجبر على البقاء في المكتبة ليتحقق من بعض المراجع التي لا يستطيع إحضارها معه إلى البيت.

تلك الأمسية حين أجبرت على تناول الطعام الذي أعدته بمفردها، وجدت أنها قد فقدت شهيتها، شعرت بأنها منزعجة ووحيدة... شعرت بأن المنزل يبدو فارغاً من دونه، أيقنت أنها تفتقد وجوده وتشتاق إليه وتفتقده أكثر من افتقادها لكاتي عندما غادرت للجامعة لأول مرة.

ادركت أنه أصبح مهماً جداً في حياتها. ارتجفت قليلاً وشعرت بقشعريرة باردة تسري في جسدهما، نتيجة هذه المعرفة.

بعد عدة أيام عاصفة تخللتها عواصف قوية، رياح باردة وأمطار غزيرة. استفاقت صباح أحد الأيام لتجد أن المطر توقف وأن الشمس عادت لترسل أشعتها من جديد. وتكشف عن التخريب الذي لحق بالحديقة، ودفعها ذلك للتفكير بالقيام بعمل ما لاصلاح الضرر.

أعلن سيلاس على الفطور أنه ينوي قضاء النهار في زيارة المنازل الأثرية في المنطقة للحصول على المزيد من المعلومات والقيام بالمزيد من الأبحاث.

«كيف يسير عملك؟» سألها سيلاس في حين كان يتناول إبريق القهوة ويملأ فنجانه ثم فنجانها.

«بشكل حسن. لقد انتهيت لتوي من مسودات الرسومات. وارسلتها البارحة. ما عليّ الآن إلا أن أنتظر ردة فعل الكاتب على عملي.»

«م... حسناً، لماذا لا تأخذين نهار عطلة وتأتين معي؟ سوف أسر جداً برفقة دليل جيد.»

مالت لأن توافقه وتقبل دعوته. ليس هناك ما يسرها أكثر

من أن تمضي النهار برفقة سيلاس. إلا إذا كان ذلك يشمل بالطبع قضاء الليل معه... ارتجفت بقوة. لقد كانت تعيش في صراع عقيم ضد تلك الأفكار الغريبة، المخزية، ضد رغبتها المتنامية في ايصال علاقة الصداقة التي تنمو بينهما إلى علاقة حب. لكن منذ تلك اللحظة التي عانقها فيها سيلاس، عمد دائماً إلى ابقاء مسافة تفصل بينهما مادياً. لم يبق أي تلميح في تصرفه تجاهها، يجعلها تشعر بانه يراها امرأة مرغوبة. هذا بالتأكيد ما كانت تريده... أو ما كانت تقنع نفسها بأنها تريده.

لم تكن واثقة من أنها تستطيع قضاء عدة ساعات وحيدة معه، في سيارته يلفهما جو من الألفة والمودة. نومها ليلة البارحة كان مترجرجاً تخلله العديد من الأحلام المزعجة. حيث حملت إليها صوراً وأفكاراً بدا فيها سيلاس... بلعت ريقها بصعوبة.

قالت بصدق: «كنت أحب أن أقوم بذلك، ولكني نويت اليوم بأن أقوم ببعض الأعمال في الحديقة مستفيدة من توقف هطول المطر.»

نظر سيلاس من خلال النافذة.

«الطقس سيكون حسناً في الأيام القليلة المقبلة. لماذا لا تؤجلي عملك هذا إلى نهاية الأسبوع؟ قد أستطيع حينها أخذ فترة راحة ونقوم بأعمال الحديقة معاً.»

معاً... يا لها من كلمة جميلة تقال. لقد كانت تريد بيأس أن تستسلم له وتوافقه على اقتراحه وتتجاهل كل تلك الأصوات المحذرة التي تعتمل في داخلها بشدة. ولكن ما يهمها لو علم سيلاس أنها تريده. بكل قواها؟

إن هذا الأمر يعني لها الكثير ويهمهما. وبخت نفسها بقسوة.

سوف يجد رغبتها به أمراً محرجاً، وبالتالي سيحبط ذلك، علاقة الصداقة التي كانت تنمو بينهما ببطء.

لذا هزت رأسها بأسف: «لا، حقيقة يجب أن أبدأ بهذا العمل اليوم.»

انتظرت، وقالت في نفسها لو أنه يلح عليها أكثر، لأنها ندمت قليلاً على رفضها اقتراحه، لكنه بكل بساطة شرب ما تبقى من قهوته وقال بروية: «حسناً، إذا لم أتمكن من اقناعك في مرافقتي، أرى أنه من الأفضل أن أذهب الآن.»

بعد قرابة نصف الساعة، القى عليها ابتسامة دافئة وذهب، من دون أن يترك لديها أي شك في أن دعوته لها، لم تكن بدافع مساعدته في ابحاثه، بل لأنه كان يأمل بدفع علاقتهما خطوة إلى الأمام.

على الأقل، عندما يكونان في مكان آخر، بعيدين عن الجو العائلي الذي يضمه وهيزل في المنزل، ستتاح له الفرص كي يتقرب منها ويلامسها. يجد صعوبة في مد يد المساعدة لها في المطبخ... في هذه المرحلة من علاقتهما.

ليس في هذه المرحلة من علاقتهما. أما الآن فقد أنّب نفسه لتمضية نهار كامل بعيداً عنها، ومن المفترض أن يقوم خلاله بأبحاث غير ضرورية لكتابه الجديد. ألم يكن من الأفضل لو بدلاً من الطاولة التي حجزها لهما، أو بدلاً من الخطط التي رسمها بعناية، ألم يكن من الأفضل، تساءل باستياء، ومن الأسهل والأكثر نضوجاً لو أنه توجه إليها وبكل بساطة واطلعها على شعوره وسألها إما القبول به أو رفضه؟

من المحتمل أن يكون ذلك أسهل، ولكنه ليس متأكد من أنها ستأخذه على محمل الجد. صحيح أنها قد توقفت عن تذكيره الدائم بسنها مدفوعة برغبة باطنية لأن تضع ذلك عائقاً أمام

أحاسيسها، لكنه لم يكن متأكداً إذا كانت تستطيع تقبل نفسها كامرأة مرغوب بها، لدرجة أنه في كل مرة كان ينظر إليها كان يشعر بأنه بحاجة لكل ذرة من قوة إرادته ليمنع نفسه من أخذها بين ذراعيه.

صعدت هيزل من دون أي حماس، إلى غرفتها وغيرت ملابسها. ارتدت سروال جينز قديماً وكنزة سميكة.

في المطبخ سحبت جاكيتها السميكة من دون كمين ثم التقطت قفازيها الجلديين الخاصين بالحديقة. وفتحت الباب الخلفي. قد تكون الشمس مشرقة ولكن النسيم كان بارداً. بدأت بتقليم النباتات علّها تدفيء جسدها قليلاً.

بعد ثلاث ساعات من العمل الشاق. شعرت بالألم ينخر ظهرها. طاقتها بدأت تذوي. علمت أن عليها أن تكتفي بهذا القدر. لكن ومع كل الوقت الذي انقضى ما زال وقت الظهيرة وسيلاس لن يعود قبل المساء. شعرت بالتردد قبل عودتها إلى ذلك البيت الخالي، لكنها مع ذلك لم تكن بمزاج يسمح لها بمتابعة عملها في الحديقة. تاقت عظامها لحمام ساخن يعيد لها قوتها ويسمح لها بالاسترخاء. ثم أن تشعل الموقد في غرفة الجلوس، بعد ذلك وتتكور على كرسيها لتقرأ كتاباً ما.

اعترفت لنفسها بأن ما تفكر به لم يكن الا تساهلاً كبيراً مع نفسها، نزعت الوحول العالقة بأدواتها واعادتها إلى أماكنها قبل أن تجر نفسها بتعب في اتجاه المنزل.

قامت بخلع حذائها أمام المدخل وداست حافية أرض المطبخ، نزعت عنها سروالها وباقي ملابسها حيث كانت واقفة ووضعتها في آلة الغسيل باشمئزاز.

في حمامها الخاص في الطابق العلوي، فتحت صبورة المياه الساخنة وملأت المغطس وأضافت إلى المياه كمية وافرة من زيت الحمام الذي أهدته لها كاتي في عيد ميلادها، متنشقة أريجه العطر بنشوة.

رفعت شعرها وثبتته في أعلى رأسها بربطة شعر زاهية، كانت في الواقع لكاتي. ثم غطست بسرعة في المياه الدافئة حتى غمرتها كلياً.

على بعد لا يتجاوز الخمسة أميال، كان سيلاس يحملق بانزعاج في مرآة سيارته: ماذا كان يفعل بحق السماء؟ يدور ويدور بالسيارة من دون هدف، على هذا النحو، في حين أن المكان الوحيد الذي يتوق لأن يكون فيه، هو المنزل مع هيزل؟

توقف فجأة برعونة، تحقق من خلو الطريق، واستدار عاكساً وجهة سيره. من المحتمل أن هيزل لا ترغب في رفقته، ولكنه بالتأكيد يريد أن يكون معها... إنه بحاجة لأن يكون معها.

رنّ الهاتف في الطابق السفلي من دون توقف، سمعته هيزل، لكنها تجاهلت الأمر. فعندما استمر الرنين، استفاقت امومتها ودفعتها لأن تنهض من مغطس الحمام وتهرع إلى الهاتف. طمأنت نفسها بعد تردد، من المحتمل أن لا يكون من يخابرها، كاتي. وإذا كانت كاتي، فليس من الضروري أن يكون قد حصل لها مكروه.

فتشت عن منشفة، ثم بدأت ترسل اللعنات من خلال تنفسها بعد أن تذكرت انها تركت المناشف النظيفة في المطبخ.

آخر أمر كان باستطاعتها القيام به أيام والدها هو ما كانت تقوم به الآن. هرولت بسرعة إلى الطابق الأرضي، عارية ومبللة،

شاكرة حرارة المنزل التي تؤمنها التدفئة المركزية، معترفة ببعض الفضائل التي تؤمنها لها المعيشة بمفردها.

ما أن رفعت سماعة الهاتف في القاعة الصغيرة حتى قالت لنفسها إنه يجب عليها شراء هاتف صغير لاسلكي تستطيع إدخاله معها إلى الحمام.

«أمي.»

«كاتي، هذا أنتِ. ما الخطب؟ هل...؟»

«لا يوجد أي خطب. يا للسماء، أنت مرتعبة. لقد وجدت متسعاً من الوقت ففكرت أن أتصل بك. لم أقاطع أي شيء مهم، أليس كذلك؟»

«كنت أستحم.» قالت لها هيزل وأردفت: «إني أقف في الصالة وابلل ما حولي بالماء المتصبب مني.»

«م... حسناً أفهم من ذلك أنك وحيدة، وأن سيلاس غير موجود ليمتع نفسه بهذا المنظر.» قالت كاتي محاولة اغاظتها.

«سيلاس سيمضي بقية نهاره خارجاً.» قالت لها هيزل باقتضاب وسألتها: «هل كل شيء على ما يرام، يا كاتي؟»

«كل شيء حسن. في الواقع كنت قلقة بشأنك. هل كل شيء على ما يرام بينك وبين سيلاس؟ أعني هل كل منكما يتدبر أمره بشكل حسن.»

«أجل، نتدبر أمورنا حسناً.» قالت هيزل عابسة، إذ اعتقدت أنها قد سمعت صوت سيارة في الخارج.

بدأت هيزل بالقول: «كاتي، اسمعي، يجب أن أذهب الآن. اعتقد أن أحداً ما في الخارج...» وقبل أن تستطيع اقفال السماعة صرخت كاتي بحدة: «انتظري لحظة، يا أمي. أعتقد أني سوف أعود إلى المنزل في الميلاد في العشرين من هذا الشهر.»

تجمدت هيزل إذ أنها شعرت بباب المطبخ يفتح. برغم تأكدها من أنها أقفلته عندما دخلت، متأكدة من انها قد فعلت، وإلى جانب ذلك لا تعرف أحداً قد يدخل بهذا الشكل من دون أن يقرع، إلا سيلاس، وهو... وهو...

فغرت فاها، إذ رأت سيلاس قد فتح باب الصالة ودخل منه. لفترة لا تتجاوز الثواني، كانا كل منهما ينظر إلى الآخر بذهول. لم تشعر هيزل طيلة حياتها بأنها أكثر ضعفاً وأكثر غباء. بدا سيلاس خجلاً وحاول إبعاد نظره عنها، لا عجب من ذلك، فكرت هيزل بتعاسة، وقالت لكاتي بارتباك: «و ـ أجل، أجل، حسناً جداً، يا كاتي عليّ أن أذهب. أنا...»

كان سيلاس قد عاد إلى المطبخ رأفة بها. لماذا بحق السماء لم تذهب وتأت بمنشفة بدلاً من أن تأتي إلى الطابق السفلي على هذا الشكل؟ لماذا لم تقم... بماذا؟ كيف يمكنها أن تعرف أنه سيعود؟

ما أن وضعت سماعة الهاتف وكانت على وشك الصعود إلى غرفتها، فتح باب المطبخ للمرة الثانية. تجمدت في مكانها.

قال سيلاس بهدوء: «خذي، لقد جلبت لك هذه.»

كان يمسك بمنشفة نظيفة من تلك المناشف التي التقطتها عن حبل الغسيل ووضعتها في المطبخ، على أمل أن تأخذها معها في طريقها إلى الطابق العلوي.

«شكراً.» أجابته باقتضاب وحاول الوصول إليها من دون أن تجرؤ على النظر إليه، ولكن وبطريقة ما، انزلقت من بين يديها برغم تأكدها من التقاطها، شعرت هيزل بارتجاف يتملكها حين لامست أصابعها أصابعه تجمدت من الخوف، تملكها رعب حقيقي إذ أنها شعرت بأن شيئاً ما قد علق في شعرها.

«اجمدي قليلا.» سمعت صوت سيلاس الأجش آتياً من فوق رأسها الصغير «يبدو أنك قد علقت، ما عليك إلا أن تقتربي مني قليلا.» قال لها حين حاولت أن تتحرك فانتبهت إلى أن شعرها قد علق بزر قميصه حين انحنيا لالتقاط المنشفة.

لم يكن بامكانها القيام بأي شيء إلا أن تقف قريباً منه ومن دون حراك، شعرت أن بشرتها تحترق من الاحراج. بينما كان سيلاس يحاول برفق تخليص خصلة شعرها وفكها من زره.

بدا لهيزل أن ذلك استغرق أبداً. كانت تعلم أن كل انتباهه مركز على ما يفعله إلا انها كانت تتعذب وتعاني من وضعها.

ما الذي دفعها منذ البداية، بحق السماء، لأن تنزل إلى الطابق الأرضي على هذه الصورة؟ لم يكن تصرفها هذا أمراً تعودت القيام به. في الواقع لقد مرت فترات كانت كاتي خلالها تمازحها في كونها متواضعة جداً في ما يتعلق بجانبيتها. فقد قالت لها في إحدى المرات، بحدة: «بصراحة، يا أمي، يجب أن تكوني فخورة بجسدك، ولا تحاولي بشكل مستمر أن تخفيه على هذا النحو. فأنت تتمتعين بهيئة رائعة. وتعرفين ماذا يقال عن هذا الموضوع، أليس كذلك؟ إذا كنت تملك شيئاً جميلاً أبرزه، واستفد منه.»

حسناً، لقد احتفظت بنصيحة ابنتها لغاية اليوم، فكرت بارتباك. ماذا بحق السماء قد يكون سيلاس يفكر بها الآن؟ هل سيعتقد أنها قامت بذلك عمداً لتوحي له بأنها كانت...

أحست قليلاً، بالتعاسة فوراً. قال سيلاس بصوت أجش: «إني آسف. تشعرين بالبرد!»

إنه آسف! الذنب ذنبها هي، فهي من وضعت نفسها بهذا الموقف، وليس هو. تساءلت ماذا سيكون رد فعل سيلاس لو أنها

أخبرته أن سبب ارتجافها لا يعود إلى شعورها بالبرد بل إلى ما استنتجته وفكرت به. ارتجافها كان سببه معرفتها بأنه مهما كان عقلها الواعي يعارضه ويبتعد عنه، إلا أنه في لا وعيها هناك أفكار طائشة وخطرة تشوش تفكيرها. وهي المسؤولة عما تشعر به من ارتباك وقشعريرة.

ارتجفت من جديد، إحراجها ولّد لديها توتراً جديداً. ومعرفة أنه على الرغم من الملابس التي كان يرتديها، عرفت هيزل بأن سيلاس هو الرجل الوحيد الذي يكمل انوثتها. استطاعت أن تشعر بالحرارة التي تنبعث منه. فارتجفت بعنف ولم تستطع منع نفسها من الاستجابة له. سمعت لعنات سيلاس وفجأة وجدت نفسها حرة وقادرة على أن تتراجع خطوة إلى الوراء بعيداً عنه.

حين مال ناحيتها ليثبت لها منشفتها، انتبهت هيزل لديه المرتجفين بشكل واضح.

«إني آسفة.» اعتذرت بصوت أبح.

توقف قليلاً عن متابعة حركته ونظر باتجاهها. تلاقت عيناهما. احترقت عيناها بلهيب غير مألوف وتزايدت دقات قلبها.

«على ماذا؟» سألها بنبرة ممغوطة: «لأنك سمحت لي برؤيتك هكذا؟»

الطريقة التي نظر بها إليها جعلتها تعي مدى أنوثتها وحقيقتها كامرأة كما لم تفعل طيلة حياتها، ولأول مرة لم تشعر بالندم، والإنزعاج. لأول مرة لم تشعر بالخجل من نفسها، لكن بطريقة ما شعرت بالفخر من أنوثتها، أدركت مدى قوتها وإمكانية قدراتها، أدركت أنها كامرأة جميلة من الممكن أن تغدو محور اهتمام كل رجل.

اعترتها موجة من المشاعر والأحاسيس جرفت عوائق السنين وكبت الذات عنها بثانية، شعرت بنفسها ووعت لذاتها، بعنف وقوة مما جعلها تحس بألم في مفاصلها. اقتربت خطوة باتجاهه، متجاهلة كل شيء آخر وكأنها أرادت أن تشاركه هذه المشاعر التي تعتريها. لكن ما لبثت أن قُمعت هذه الرغبة فيها بعنف حين سمعت سيلاس يضيف بتردد: «أجل، يا هيزل، وأنا كذلك.»

تجمدت فوراً في مكانها، وعادت إليها كل هواجسها وأضيفت إليها الاحساس بالإذلال والخجل. بالطبع فهو لا يريدها، لا يرغب بها. بالطبع لم يكن يوحي لها...

بدأت ترتجف بعنف، شعرت بالدموع تحرق عينيها.

«هيزل، ما خطبك؟ ماذا أصابك؟»

عواطفها كانت أعمق من أن تسمح لها بالكلام. كان لا يزال يمسك منشفتها وفجأة لدهشتها فتحها لها وقال لها برقة: «هيا تعالي هنا... جففي نفسك قبل أن أفقد كلياً السيطرة على نفسي وتخونني أعصابي. هل لديك أدنى فكرة عما تفعلينه بي؟» سألها بصوت أبح وقادها إلى الطابق العلوي.

«أنت وأنا علينا أن نتحدث.» قال لها وهو يقفز صعوداً على السلالم.

«إني آسف إذا كنت قد سببت لك صدمة بمجيئي باكراً على هذا الشكل غير المتوقع، لكني لم أكن...»

تلوت هيزل بعدم ارتياح، متوقعة ما كان هو على وشك أن يقوله. لكنها كانت عاجزة عن وضعه في كلمات واضحة محددة. بالطبع لا، نلك؟ لم تكن تعلم أنه سيعود باكراً.

كان على وشك أن يضعها على سريرها عندما شعرت بتقلص

عضلاته فأطلقت صرخة عالية، الحقتها بتنهيدة حادة. فتجمد سيلاس.

تملكها، الغضب وعدم التصديق. لكن الأسوأ، كان الشعور بالاذلال الذي اعتراها ما أن ابتعدت عنه بهدوء بمنشفتها. نظراته مركزة فوق كتفيها وقال بخشونة: «إني آسف، لم يكن يجدر بي أبداً أن...» ابتعد عنها فيما بقيت مجمدة من التعاسة وشعورها بالنبذ، غير مدركة لما قالت أو فعلت وأدى إلى ردة فعله هذه وابتعاده عنها بهذا الشكل.

«أنا... أنا يجب أن أخرج.» قال بهدوء: «لست متأكداً متى سأعود.»

عاجزة عن الحراك، عن الكلام أو عن القيام بأي شي إلا عن أن تغمض عينيها وتختبىء وراء الألم الذي اعتراها. سمعته هيزل يغادر.

حتى بعد أن سمعت صوت محرك سيارته يبتعد كانت ما تزال تفتقد الجرأة التي قد تدفعها للتنفس بشكل طبيعي. كانت ما زالت عاجزة عن الحراك.

شعرت بالعذاب يمزقها، يكبلها ويزيد من العوائق والآلام التي طالما اعترتها وسببت لها عذاباً وكرهاً للذات.

يا إلهي، كيف استطاعت أن تتصرف على هذا النحو؟ كيف أمكنها أن تكون بهذا... الاستهتار؟ وهي التي، طالما أكدت له بأنها لا تريده.

حسناً، إنه يعلم الحقيقة الآن، يعلم أنها كانت تكذب ولا عجب أنه ابتعد عنها بهذا الازدراء.

كانت ما تزال ترتجف عندما غادرت سريرها، شعرت بضعف جسدها الواهن وبيديها المرتجفتين حين ارتدت ملابسها.

ماذا كان سيحدث لو لم يتوقف عندما فعل؟ ماذا كان سيحدث لو أصيب مثلها بالضعف وتغلبت عليه رغبته وحبه!

جلست على سريرها، غطت وجهها بيديها، ارتجف جسدها وغص حلقها بتنهيدات يائسة ساكنة. لأن الحقيقة أصبحت واضحة لها.

لقد وقعت في حب سيلاس. ما انتابها لم يكن مجرد رغبة أيقظت مشاعرها. لم تكن مجرد يقظة متأخرة لرغبتها، للتجاوب مع أول رجل جذاب تلتقيه.

وقعت في الحب. استعادت في مخيلتها تلك اللحظة التي وقع فيها نظرها على سيلاس للمرة الأولى، استعادت تلك العواطف التي اعترتها... التي شعرت بها بسرعة وحاولت كبتها بالسرعة نفسها، اعتقاداً منها بانه وكاتي حبيبان. لقد فات الأوان الآن لكي تتمنى لو أنها لم تلتقيه أبداً؛ لكي تتمنى أن ما تشعر به الآن يظل مختبئاً في داخلها ولا تخبره لأحد.

كانت عواطفها الهائجة الآن أشد ايلاماً بآلاف المرات مما لو أنها هوجمت بمئات الابر والدبابيس الحادة. كانت تعذبها وتدخلها في دوامة من التعاسة والاحباط.

مضى وقت طويل قبل أن تشعر أنه باستطاعتها النزول إلى الطابق الأرضي. كانت تشعر بالوهن والاعياء في كل جسدها، وفي الوقت نفسه كانت تدرك بألم كيف كان مايزال متشنجاً، مايزال تواقاً لما خبره.

عندما لم يعد سيلاس على العشاء، استنتجت بأنه كان يحاول بقدر المستطاع أن يضع مسافة تفصل في ما بينهما. آوت إلى فراشها باكراً، مصممة على أن تعامله بالمثل لكنها لم تستطع النوم. سمعته يدخل عندما كانت ساعتها تشير

إلى ما بعد منتصف الليل. أين كان؟ هل كان بمفرده؟ افترستها الغيرة كما تفترس النار الهشيم، مظهرة لها جانباً آخر من طبيعتها. ومضت ساعات، ساعات طويلة جداً قبل أن تستسلم لسلطان النوم.

تجنب كل منهما الآخر لفترة ثلاثة أيام. كانا يلتقيان صباحاً على الفطور في المطبخ لدقائق مقتضبة. كانت تشارك بسخافة بما يشبه المحادثات التي كانت تدور في ما بينهما بتعليقات مختصرة واجابات محددة، حاولت من خلالها التهرب من أية مناقشة قد يخوضها. كان الأوان قد فات على أية محاولة لتسترد شيئاً من كرامتها بحيث تتأكد من أنه لن يعرف أكثر مما قد عرف وذلك بالحفاظ على كبريائها، وجعله على دراية بأنه مهما بلغ ضعفها، فهي راشدة وقادرة على السيطرة على نفسها ورغباتها ودفنهما إلى لا عودة. ولكن برغم ذلك. فمجرد رؤيته، وسماع صوته... يكفي أن تعرف أنه موجود معها في البيت، حتى تشعر بالضعف.

إذا كان هذا هو الحب، لكان أفضل بكثير لو لم تختبره، فكرت بمرارة ذات صباح وهي تركن سيارتها في المرآب القريب الخاص بالسوق المركزي وتتوجه نحو المدخل الرئيسي. قفز قلبها عندما حيتها شيلا سيمبسون. ما تريد هو أن تُترك بمفردها. لتغرق في تعاستها وشفقتها على ذاتها؟ ابتسمت بأسى وكأنها تؤاسي نفسها.

«يا إلهي، أنت محتالة كبيرة، ألست كذلك؟» بادرتها شيلا قائلة حين أدركتها على باب السوق.

«عندما سألتك إذا كنت تنتظرين زواراً، لم يكن لدي أدنى فكرة بأنك... أعني اعتقدت...؟»

ركزت هيزل نظرها عليها، باستغراب ملحوظ.

«ماذا تعنين، يا شيلا؟» سألتها بحدة. كان عليها أن تتغلب على خجلها وإحراجها وتواجه شيلا لتطلب تفسيراً لما تحاول الايحاء به، لكنها وفجأة شعرت بأنها ليست بحاجة لمثل هذا التفسير، شعرت وكأنها تتغلب على كل تلك القواعد. فهي قبل كل شيء امرأة راشدة وليست بطفلة، لم تكن مسؤولة تجاه أحد إلا تجاه نفسها، لم يعد والدها حياً لكي تقلق من الشائعات التي تتناول حياتها الخاصة.

«حسناً، لا شيء.» تراجعت شيلا الآن وبدت مترددة ثم تابعت: «لكن إذا كان لديك رجل يقيم معك تحت سقف واحد. عليك أن تتوقعي بعض الثرثرات التي قد يطلقها البعض...»

«أية ثرثرات؟» سألتها هيزل، ببرود. «أننا حبيبان؟»

شعرت شيلا ببعض الإحراج لكنها تابعت: «حسناً، نعم.» وافقتها على ذلك بانزعاج. «طبعاً لقد قلت إن هذه الشائعات لا بد وأن تكون كاذبة، لكن أنت تعرفين كيف هم الناس...»

«أجل، اعرف كيف هم بعض الناس.» أجابتها هيزل بحدة وتابعت طريقها متجاوزة اياها وأضافت بسخرية: «والآن، أرجو المعذرة، يا شيلا، ولكن يجب أن أبدأ بالتسوق.»

عندما تجاوزت نصف الممر تقريباً فقط دافعة عربة التسوق، اكتشفت أنها ماتزال ترتجف. أنت تبالغين في ردة فعلك، حذرت نفسها ولكن هذا التحذير لم ينفعها بشيء. لكنها لم تكن معتادة على أن تكون محط انتقاد الناس أو موضوعاً لثرثراتهم وفضولهم. لكنها اكتشفت أن هذه الفكرة لا تزعجها على الاطلاق.

كرهت فكرة أن يتكلم الناس عنها وعن سيلاس متناقلين أخبارهما... ومعلقين على الموضوع بالطريقة البشعة

والمدمرة نفسها التي طالما سمعتهم يتناقلونها عن الآخرين. أفكارها هذه جعلتها تشعر بالاحتقار وبالدناءة... جعلتها تشعر... هزت رأسها محاولة اقناع نفسها بأنها كانت تتصرف كالحمقاء، لكن مشاعر الغضب والتعاسة التي ولّدتها تعليقات شيلا، رفضت بأن تتركها وحالها. فقد ظلت تطن في رأسها لعدة ساعات لاحقة، عندما دخل سيلاس المطبخ لم تكن بعد قد انتهت من تحضير وجبة العشاء.

عدم توقعها رؤيته، خاصة أنه في الفترة الأخيرة أخذ يمضي ساعات طويلة خارج المنزل ولا يعود إلا في وقت متأخر، جعلها تتجمد في مكانها.

«هل هناك خطب ما؟» سألها عابساً وهو ينظر إليها.

«لم أكن أتوقع عودتك باكراً.»

«لا، أتفهم ذلك.» وافقها وفي صوته نبرة قاسية، زادت من حدة توترها نبرة ساخرة لاتشبه على الاطلاق طريقته العادية في مكالمتها فقد كانت فظة وكأنها ورقة سنبادج تحف بقسوة على أعصابها الحساسة.

«لقد عدت لأن هناك أمراً أريد أن أطلعك عليه.»

توقفت عما كانت تفعله ونظرت إليه متسائلة. تسارعت دقات قلبها وكأنها طبول تقرع بعشوائية. تملكتها أحاسيس مرعبة وموجة من التعاسة وكأن ساعة القدر قد اقتربت. أرادت أن تمنعه عن الكلام، عن إخبارها بأي شيء كان ينوي إخبارها به لأنها كانت تعلم بأنه أمر لا تريد أبداً سماعه.

«لقد وجدت مكاناً آخر للمكوث فيه.»

قال ذلك فجأة، وكأن نبرته حملت نبرة تحد مما زاد من صدمتها.

لم تستطع الكلام. لم تستطع إظهار أية ردة فعل، غير أن تبقى مسمرة في مكانها، تحملق به بذهول صامت.

«يبدو أنه الحل الأفضل في ظل هذه الظروف.» ثم أضاف بخشونه عندما لم تجب: «سوف أقوم بنقل كل اغراضي مساء هذا اليوم.»

أدركت هيزل أن عليها أن تقول شيئاً ما، أن تستجيب بطريقة أم بأخرى، لكنها بكل بساطة لم تستطع الوثوق بما قد تقوله. كانت خائفة من أنها لو فعلت، فهي بالتأكيد قد تنهار أو تتجزأ إلى مئات القطع، سوف تنهار كلياً. لكن بالمقابل كان عليها أن تقول شيئاً، كان عليها أن تدعي بأن هذا الأمر لا يعنيها، بأنها لا تمانع... بأن ذلك لم يفطر قلبها. عادة التأقلم مع أي وضع، وتلك العادات القوية التي كان والدها قد زرعها فيها بعمق عادت إليها الآن وسمعت نفسها تقول بصوت غير مألوف، جامد وحديدي: «إذاً لن أحضر لك عشاءك. من الآن وصاعداً.»

تفاهة ما نطقت به، جعلتها تشعر بحاجتها لأن تصرخ بأعلى صوتها وبشكل هستيري. لكن وبطريقة ما تمكنت من كبت نفسها، من منع ذاتها من القيام بمثل هذا العمل.

سيلاس كان ذاهباً، راحلاً. وكل ذلك بسببها هي. بسبب غلطتها. لو لم تستجب له كالحمقاء... لو لم تظهر له بكل تلك الوقاحة، كم كانت ترغب به... لكن ما نفع لوم نفسها الآن؟ ما الهدف من تعذيب نفسها الآن؟ أين هي كرامتها؟ أين هي كبرياؤها واكتفاؤها الذاتي؟

الفصل الثامن

كان ذلك السؤال يهاجم تفكيرها مراراً وتكراراً في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. كما كان عليها أن تراقب بصمت سيلاس وهو يحزم أمتعته ثم يقوم بنقلها إلى سيارته ليعود بعد ذلك ويبحث عنها ليشكرها على كل ما فعلته من أجله.

إنما وقبل أن يرحل، خطا باتجاهها وكان على وشك أن يأخذها بين ذراعيه، لكنه فوراً، أعاد التفكير ملياً بحركته هذه فاستدار على عقبيه ورحل من دون أن يلقي عليها كلمة وداع رسمية.

انتظرت حتى تأكدت فعلياً من رحيله قبل أن تطلق العنان لحزنها. ليس بذرف الدموع لكن فقط بألم صامت وتعاسة قاتلة، ملكت جسدها وقبضت على قلبها بعد أن جعلت منه حطاماً. فيما حاولت بشتى الطرق إيجاد وسيلة ما تنشلها من تلك المشاعر المؤلمة التي كانت تعاني منها.

قبل رحيله بلحظة، أعطاها سيلاس عنوان مقره الجديد، لتتصل به، في حال احتاجت له في شأن ما.

كان من الواضح أنه استأجر كوخاً صغيراً في البلدة المجاورة التي لا تبعد أكثر من عدة أميال.

توقف قليلاً قبل ذهابه، وكأنه كان على وشك أن يطلعها على أمر ما، لكنه ما لبث أن بدل رأيه وأدار ظهره ورحل بعد أن أعطاها بطاقة كتب عليها عنوانه الجديد.

ما الذي كان باستطاعته تقديمه لها، غير الشفقة، وهو الشيء الأخير الذي كانت تريده منه؟

استغرقت ثلاثة أيام قبل أن تستطيع إعادة شمل تفكيرها المشتت وتتمالك ذاتها لتستطيع العودة إلى العمل. لكنها لم تكن على أفضل حال، غرقت في حزنها وبؤسها، عملت من دون حماس، شعرت بضعف عزيمتها، لكن ذلك كان أفضل من أن تمضي النصف الأول من نهارها، مستلقية على فراشها، عاجزة حتى عن فتح عينيها لمواجهة الأمر الواقع ومتابعة حياتها، ثم تنتظر النصف الثاني من هذا النهار الطويل مستيقظة، تعد الساعات والثواني المتبقية ليأتي المساء وتظلم الدنيا كظلمة قلبها فتنام مع أحزانها.

ما كانت بحاجة إليه، همست لنفسها، هو مرتابة يومية بسيطة لكن صارمة تنتشلها من بؤسها وتعيدها إلى هذا العالم، كما لو كانت مريضاً في طور النقاهة، يتعافى من مرض عضال، أضعف قلبه وحطم جسده، وهذا ما كانت تعانيه، أليست تعاني من مرض مستعص؟ إلا أنها لا تختلف عن أي مريض عادي إلا لكونها ترى شفاءها مستحيلاً... أفضل ما كانت تأمل به حالياً هو أن يكون هذا الشفاء ممكناً.

كانت مسرورة لأن كاتي لم تتصل، كانت تشك بقدرتها على اخفاء حالتها العاطفية وتعاستها عن ابنتها. فآخر ما كانت بحاجة إليه الآن هو ازعاج كاتي واقلاقها. وبعد ثلاثة أيام من رحيل سيلاس وما أن قطعت على نفسها وعداً بأن تتناول عشاءها وتعيد تنظيم حياتها وتنجز بعض الأعمال لكي تلجأ إلى فراشها باكراً وتستسلم للنوم حتى سمعت صوت سيارة تتوقف في الفناء الخارجي.

دفعتها أعصابها المشدودة، حواسها المتيقظة فوراً لأن تتعرف على صوت محرك سيارة سيلاس.

لكن من المستحيل أن يكون هو، من المستحيل أن يكون قد عاد... شعرت بتوترها يقلص أعصابها. تجمدت في مكانها وحملقت بالباب الخلفي.

عندما رأت طيفه المألوف القريب من قلبها يمر بالقرب من نافذة المطبخ، ذعرت وفكّرت بأن تهرب فوراً وتختفي في غرفتها. لكن ذلك أصبح مستحيلاً الآن بعد أن رآها.

عندما قرع جرس الباب سارت هيزل بتمهل لتفتح له ثم ما لبثت أن تجمدت في مكانها، حملقت به عاجزة بسبب يأسها عن الكلام، أدركت عمق حبها له، كما أدركت مدى الألم الذي سببه لها هذا الحب، لقد عانت الكثير طيلة حياتها وواجهت العديد من الصعاب، لكنها الآن أصبحت متأكدة من أنها لن تستطيع التغلب أبداً على هذه التجربة المؤلمة. هذه المحنة القاسية التي خبرتها برغم كونها في السادسة والثلاثين.

فكرت بأنه قد يكون نسي شيئاً وعاد ليأخذه، هذه الفكرة التي طرأت على رأسها جعلتها تتنحى جانباً مفسحة المجال له للدخول.

لا بد وأن تغيير الطقس أو برد الخريف هما ما جعلا سيلاس يبدو شاحباً، ووجهه متعباً فاقد التعابير، هذا ما أقنعت نفسها به وهو على وشك الدخول إلى المطبخ.

«كنت أتمنى أن أجدك هنا.» كانت تلك العبارة الأولى التي تفوه بها. لم يكن ينظر إليها مباشرة ولو أن رجلاً آخر هو من دخل عليها وكلمها بهذه الطريقة، بهذا التردد وهذا التوتر لكانت حتماً قد فقدت أعصابها. لكن سيلاس لم يقم من قبل باستفزازها. فكرت أن زيارته هذه ليست إلا زيارة مجاملة، شعر سيلاس بضرورة القيام بها وبأكبر سرعة ممكنة. مم كان

يخاف...؟ هل كان خائفاً من أن تفقد سيطرتها على نفسها فترمي نفسها بين ذراعيه، متوسلة كي لا يتركها، كي يرغب بها ويحبها؟

شعورها باحتقارها لذاتها كان ما زال مستبداً بها. يعذب كيانها ويقلق تفكيرها، ويجعلها تشعر بالغثيان.

إنها تدرك الآن ماذا أصابها. إنه مرض «الحب».

كانت تعتقد بأن هذا المرض لا يصيب إلا المراهقين، لكنها الآن فقط اكتشفت كم كانت مخطئة.

«هل تقومين بأي عمل هذا المساء؟»

جاء سؤال سيلاس جافاً، فظاً، نبرته حادة تختلف عن أسلوبه الرقيق الممتع الذي تعود أن يخاطبها به، نبرته جعلتها ترفع عينيها بدهشة وتجيب من دون تفكير.

«لا، ليس تماماً. كنت أنوي القيام ببعض الأعمال لكن...»

«حسناً، إذاً أنت غير مرتبطة، لذا سوف تقبلين دعوتي للعشاء.»

مجدداً، الطريقة التي قاطع بها سيلاس جملتها المترددة كانت أيضاً غير مألوفة، تماماً مثل النبرة التي صدرت عنه منذ قليل.

«هناك شيء أريد أن أناقشه معك.» أضاف بحدة.

قفز قلبها من مكانه، ماذا يريد منها الآن؟ بماذا يريد محادثتها؟ هل شعر أنه ليس كافياً انتقاله من منزلها، وأنه يجب أن يصارحها بذلك شفهياً. يقول لها صراحة بأنه لا يريدها؟ هل يعتقد أنها حمقاء لم تفهم ذلك بعد؟

«لا أعتقد أن...»

أوشكت أن تقول: لا اعتقد أن ذلك ضروري، لكن وللمرة الثانية لم يسمح لها سيلاس بأن تتابع جملتها بل قاطعها

متوسلاً: «هيزل، أرجوك... لم أكن لأضغط عليك بهذه الصورة، ولكن صدقيني، الأمر ضروري.»

لكن ماذا كان بامكانها أن تجيب؟

«حسناً... حسناً، ما دمت مصراً.» أجابت بتردد.

«سوف أنتظرك هنا، إذا سمحت طبعاً، بينما تحضرين نفسك؟»

سوف ينتظرها؟ حملقت به بذهول. كانت الساعة السادسة مساء تقريباً، لن يستغرق منها أكثر من نصف ساعة لتغتسل وتبدل ملابسها. ليس لديها أدنى فكرة عن المكان الذي ينوي اصطحابها إليه. لكن الوقت ما زال مبكراً لكي يصطحبها مباشرة إلى العشاء؟ إلا إذا كان طبعاً يريد إنهاء مهمته بأسرع وقت ممكن.

«حسناً، إذا كان هذا ما تريده.»

نظرت إليه نظرة متسائلة، مترددة مما دفعه لأن يجيبها بابتسامة دافئة رقيقة، حنونة، هزت كيانها وشلت تفكيرها. وكانها تحت تأثير مخدر ما.

سارت كالعمياء باتجاه الباب، فتحته وكانت ما تزال على السلالم عندما انتبهت إلى أنها لم تسأله إلى أين سيصطحبها.

قالت لنفسها بطيش، لكن إذا كانت ستجلس بجانبه تستمع إليه وهو يشير إلى أنه قد عرف سرها وأنه لمصلحتهما معاً أن يفترقا، لأنه لا يستطيع أن يبادلها حبها. ما عليها إلا أن تبدو في أحسن حالة وأجمل هيئة، عليها أن تبدو كامرأة مغرية جذابة، بامكانها إثارة أي رجل بدلاً من أن تبدو كامرأة تدرك في أعماق ذاتها أنها قد نبذت عاطفياً، ونفسياً، وبكل الطرق من قبل الرجل الوحيد الذي أحبته.

استحمت بسرعة ثم ارتدت الملابس الداخلية ذات القماش الحريري الرائع، تلك التي أهدتها إياها كاتي في عيد الميلاد الماضي، معتبرة أنها من نوع الملابس التي يجب أن تتواجد في خزانة ملابس كل امرأة.

«لكنه غال جداً.» اعترضت هيزل حينها وما أن فعلت حتى لمحت تعبير الغضب الممزوج بالحنان يعبر وجه ابنتها التي شعرت فوراً بالألم يخترقها، حزناً على قلة خبرة والدتها وعدم معرفتها بكيفية التمتع بجانبيتها.

قالت كاتي مهددة: «عندما ترتدينه... وسوف تفعلين، عليك أن تتأكدي من أنك سترتدينه ملتصقاً بجلدك من دون أن ترتدي أي شيء تحته.»

عندها صدمت هيزل واستنكرت اقتراح كاتي بكل التحفظ والحشمة اللتين كان والدها سيوافقها بالتأكيد عليهما، لكن الآن وبعدم مبالاة نبذت فكرة العودة إلى الوراء، التحفظ والانغلاق لن يجدياها نفعاً. بدلاً من ذلك وضعت ذلك الرداء الحريري البارد عليها.

أوقفي ذلك، حذرت نفسها وهي ترتدي ملابسها، وتساءلت وهي تسخر من نفسها، لماذا تعاني من كل تلك الحيرة من أجل رجل على وشك أن يخبرها بأنه يرفضها ولا يبالي بحاجاتها التي اكتشفت وجودها مؤخراً في حياتها، وكأن قدرها المؤلم يحاول أن يسخر من اكتشافها هذا.

غير متأكدة تماماً من المكان الذي قد يصطحبها إليه سيلاس ومدركة بأنه ينتظرها في الأسفل، لم يكن باستطاعتها التردد حول ما تريد ارتداءه. فاختارت ثوباً جنونياً ذا لون أحمر زاهياً، كانت قد ابتاعته الشتاء ما قبل الماضي ثم أهملته في خزانتها،

كونه ملفت للنظر وبالتالي لا تستطيع ارتداءه بشكل دائم.

ياقته عريضة عالية تلف كتفيها بأناقة، كمان طويلان مع شال رقيق ينحدر بتهدل ليصل إلى منتصف ركبتها ولكن على الرغم من كونه فضفاضاً لم يمنع ذلك كاتي ذات مرة، من أن تصرخ عند رؤيتها. «أووه... أمي إنه رائع.»

هذه «الاووه» كان سببها بشكل أساسي ذلك الخط الطويل من الأزرار الناعمة التي زرعت على الثوب من أعلى الصدر وحتى الخصر مثبتة بعروات سوداء أنيقة المظهر.

تذمرت وشعرت بالحيرة والارتباك من تعليقات ابنتها، لم تستطع أن تفهم لماذا تعتبر كاتي ثوبها هذا مغرياً جداً، كل ما استطاعت كاتي قوله كان: «إنها الأزرار... هناك شيء يتعلق بها، شيء يجعل أي رجل بكامل رجولته عاجزاً عن المقاومة.»

عندما تذكرت تعليق كاتي كانت تنهي بسرعة تبكيل أزرارها، ترددت واحمرت وجنتاها. شعرت بعدم ارتياح. هل كانت فعلاً صادقة مع نفسها في ما تفعله؟ هل تقبلت حقاً بأن سيلاس لا يرغب بها؟

ثوبها هذا، ملابسها الداخلية، ألم تكن نوعاً من الغباء التام، ألم تكن محاولة أخيرة منها لتجعله يشعر بوجودها، لتجعله يرغب بها... ألم تكن كذلك؟

عندما ترددت واحتارت ما بين أن تخلع عنها ما كانت قد ارتدته والعودة مجدداً إلى مظهرها العادي، سمعت تحركات سيلاس في الطابق الأرضي، اتخذت قرارها بسرعة. لم يعد لديها الوقت الكافي لتخلع هذا الثوب وتستبدله بآخر أكثر بساطة. من الواضح أن سيلاس كان قد بدأ يفقد صبره ويندم على اقتراحه. ومن يستطيع لومه على ذلك؟

قبل أن تتوجه إلى الطابق الأرضي، تناولت سترتها الصوفية السوداء من الخزانة، وضعتها فوق ثوبها علها تجد مهرباً لها عبر لونها الكئيب.

رمقها سيلاس عندما دخلت إلى الطبخ، لكن لم تلمح أي تعبير في وجهه يدل على أنه كان مهتماً ولو قليلاً بما ارتدته. بل ظهر كرجل يحمل هماً ثقيلاً، ثقيلاً جداً. هماً قد احتل تفكيره وعواطفه وأنساه كل شيء آخر.

عندما غادرا المنزل، بدا رقيقاً كما كان يبدو دائماً، سار أمامها وفتح لها باب السيارة الأمامي وساعدها كي تأخذ مكانها. استطاعت هيزل أن تلاحظ أنه يحاول ابقاء مسافة بينهما فيما شعرت به وكأنه يحمل نفسه على عدم لمسها... وكأنه كان خائفاً من أن يفعل.

لا عجب في ذلك، سخرت من نفسها بمرارة، احمر وجهها خجلاً من الاحراج والشعور بالذنب، عندما تذكرت كيف استجابت له بتلك الطريقة المخزية التي لم تشجعه فقط على التودد إليها، بل وكأنها توسلت إليه بصمت أن يستمر في ما يفعل.

غرقت في تلك الذكريات المزعجة فارتعشت بحدة، إلا أنها احتفظت بنظراتها مسمرة على المناظر المظلمة المحيطة بها.

شعرت بسيلاس يدخل السيارة إلى جانبها ثم يصفق الباب ورائه ويدير محرك السيارة. رفضت بحزم الخضوع لرغبتها في أن تنظر إليه، تحدق به وتدرس ملامحه لتحتفظ بذكريات جديدة عنه، تؤاسيها أيام وحدتها. لكن ما الهدف من معاقبة نفسها بهذه الطريقة؟

جلست من دون حراك في السيارة إلى جانبه، تحملق في الظلمة السائدة من دون أدنى فكرة، إلى أين سيذهبان. مدركة

فقط لتلك الأميال التي كانت السيارة تقطعها بسرعة، لذلك شعرت بنوع من الاندهاش عندما انعطف بالسيارة إلى قرية وبدأ بتخفيف سرعته. ثم ما لبث أن أوقف السيارة أمام واحد من الأكواخ العديدة التي امتدت على طول الطريق.

عندما أدارت رأسها لتنظر إليه، قرأ السؤال في عينيها فقال ببساطة: «ما أنا بصدد قوله لك، ليس سهلاً. لذلك فكرت بأنانية أنه قد يكون من الأفضل أن يقال ونحن على انفراد.»

شعرت بتقلص عضلات معدتها، شعرت بالألم والتعاسة تخفق في قلبها وتعذب كيانها. كيف كان يتخيل ردة فعلها على ما يريد قوله؟ هل اعتقد أنها ستخلق مشهداً يتطلب منه أن يبادلها حبها؟ كبتت رغبة قوية بأن تطلق ضحكة تعبر عن ألمها وتعاستها، رغبة بأن تقول له إنه ليس من حاجة لأن يستمرا بذلك التعذيب الصامت لكليهما، بأن تخبره بأنها تعرف بدقة ما يريد أن يقوله لها، وبأنه يجب ألا يعتريه كل ذلك الخوف. قد تكون عاجزة عن السيطرة على مشاعرها، قد تكون عاجزة عن تدمير واقتلاع ذلك الحب العنيد المقاوم الذي يتنامى باستمرار في داخلها، لكنها قادرة وسوف تعمل على قمع ذلك الحب من أن يقيده. لكن سيلاس خرج من السيارة واستدار ليفتح لها الباب. لم يكن لديها خيار آخر إلا أن ترافقه بصمت عبر البوابة الصغيرة إلى ممر ضيق يؤدي إلى باب الكوخ الأمامي.

في الداخل، كان على سيلاس أن يخفض رأسه قليلاً ليتفادى الارتطام بأعلى باب غرفة الجلوس المنخفض.

أثاث الغرفة كان رثاً وقديماً، لكن على الأقل كانت هناك ناراً دافئة ينبعث وهجها من المدفأة مما لطف من قساوة تلك الجدران غير المزينة.

«لم يتسن لي الوقت الكافي بعد لأهتم بالغرفة وأعيد زخرفتها.» قال سيلاس وكأنه شعر بانتقادها الصامت: «لقد كنت محظوظاً بأني قد وجدت مكاناً كهذا لاستئجاره. يبدو أن مالكه قد توفي السنة الماضية، والوريث كان متردداً بشأن بيعه أو الاحتفاظ به ليستفيد من الايجار. علينا أن نتناول طعامنا في المطبخ، إني آسف، فهو لا يقارن طبعاً بمطبخك، إنه بدائي وبسيط. صراحةً، إني أفتقد دفء منزلك، إلى التنعم صباحاً بهذا الدفء وأعتقد أني سوف أفتقده أكثر مع حلول الشتاء.»

كانت على وشك القول، إذا كنت مشتاقاً إليه لهذه الدرجة يمكنك أن تعود ساعة تشاء، لكن كبرياءها منعتها. قد يكون هذا أغبى ما يمكن قوله، اضف إلى ذلك، أنه من دون جدوى.

بدلاً من ذلك، قالت فجأة وبصدق: «أنا آسفة، لكن لا أعتقد أنه باستطاعتي تناول أي طعام. لقد قلت إنك تريد أن تتكلم معي. ألا يمكننا أن نبدأ؟»

توقفت ثم نظرت بعيداً عنه، عاجزة عن المتابعة.

«ادخلي واجلسي.»

اعتقاداً منها بأنه سوف يجلس على المقعد الواسع من بين المقعدين اللذين يحيطان بالموقد، توجهت إلى المقعد المقابل، لكنها وفجأة مالت إليه مما دفعه لأن يرفع ذراعيه فوراً ليمنعها من الوقوع، كما اعتقدت، لكنه بدلاً من ذلك عانقها فجأة بقوة كما لم يعانقها من قبل، ضمها إليه حتى أنها ما كادت تلتقط نفسها.

«إني آسف. إني آسف.» قال بصوت أجش: «لكن ما يحدث يقتلني، يا هيزل، إني أريدك، أحتاج إليك، أتوق إليك بكل جوارحي، لدرجة أشعر معها بأني سوف أصاب بالجنون من كثرة التفكير بك، وكل ذلك الوقت كنت مقيداً بذلك الوعد اللعين

الذي قطعته لك بأن لا ألمسك طالما أني أعيش تحت سقف منزلك... لكنني الآن لم أعد كذلك. يمكنك أن تطلبي مني التوقف عن ذلك إذا أردت. يمكنك أن تقولي لي إنك لا ترغبين بذلك، إنك لا تريدنني...»

كان يرتجف بعمق وانفعال، مرسلاً رعشات عنيفة تكاد أن تحرقها. اكتشفت فجأة بأنها كانت متمسكة به بالقوة نفسها وقد تاقت إلى عناقه.

«أحبك، تعلمين ذلك، أليس كذلك؟» كان يهمس في أذنيها بشغف: «وقعت في حبك منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها كاتي تكلمني عنك: «تعالى معي إلى بيتنا وتعرف إليها شخصياً إذا كنت معجباً بأمي لهذه الدرجة؟» كانت تحاول دائماً أن تغيظني. «أمي من أشد المعجبات بك وأنا متأكدة من أنها سوف تسر بلقائك.» أقنعت نفسي بأن كلام كاتي لم يكن إلا حججاً تحاول من خلالها اقناعي بأن أمكث معك لأني كنت أفتش حينها عن منزل أقيم فيه، لكي أنجز كتابي. قلت لنفسي إن المرأة التي تخلب الالباب... التي تبدو مختلفة... مختلفة جداً كما تصفها ابنتها، من المستحيل أن تكون موجودة فعلاً، من المستحيل أن تتحول إلى لحم ودم وتخلق في هذا الوجود. ثم رأيتك واكتشفت أن لا شيء مما قالته كاتي كان مبالغاً فيه. لقد كنت كاملة... أنت حقاً كاملة.»

أخذ وجهها بين يديه لكي يتمكن من النظر في عينيها.

«لا تتجرئي أبداً وتسخري مني.» قال لها بشراسة: «حسناً، أعلم أني أجعل من نفسي أحمق، وأن الرجال في مثل سني لا يقعون بهذه العمق في الحب، ويصبحون عاجزين عن القيام بأي عمل سوى التفكير بهذا الحب، لكن هذا لايعني أن شعوري أقل ألماً وعذاباً، فقط لأنه من السخيف أن...»

وضعت اصبعها على شفتيه، منعته من متابعة حديثه وقالت بصوت أبح: «لم أكن أضحك، يا سيلاس، أنت لا تفهم...»

توقفت قليلاً من الخجل، وغير واثقة مما كانت ستقول، لكنها نظرت إليه وفي عينيها كل تلك المشاعر.

بادلها النظرات ولاحظت أنه يسيطر على نفسه، لكنه فجأة عاد يعانقها، هذه المرة برقة وحنان وب... بحب لم تكن تحلم بأن يبادلها به. وهي تريد أن يعرف كم هو، أيضاً، يعني لها.

«هل هذا حقيقي؟» سأل وكأنه يحلم وضمها نحوه. «أشعر وكأنني في حلم مستحيل. لقد أتيت بك إلى هنا على أمل أن أكلمك، أن أخطو خطوة باتجاهك. أن أظهر لك أنه يمكن أن ينشأ بيننا شيء ما. اعتقدت أنني قادر على أن أتصرف بتعقل، أن أكبت عواطفي ورغباتي. أن أجعلك تتعرفين علي عن كثب، على أمل أن يأتي يوم ما وتقعين في حبي. اعتقدت أني قد دمرت كل شيء، كل ما بنيته في ذلك النهار، لكن، احساسي بك وأنك بين ذراعي، و...»

ارتعش بشكل واضح، اسودت عيناه فجأة وتابع: «هل لديك أدنى فكرة عما تفعلينه بي؟» همس في أذنها.

«أعتقد ذلك.» قالت له هيزل وتابعت بخجل: «وإذا كان شيء يشبه ما تفعله أنت بي...»

تركها بسرعة حتى كادت أن تقع. ابتعد عنها وسألها بصوت أجش: «لقد أحببتني؟ أردتني كما أردتك؟» ـــ

«أليس ذلك واضحاً؟» رددت هيزل.

الابتسامة التي ارتسمت على ثغره جعلتها تتورد خجلاً. لقد كانت ابتسامته مليئة بالحب والعطف.

«لا.» أجابها عابساً. «آه، أجل، أعرف أنك قد استجبت لي،

لكني أعرف أيضاً أنك امرأة من دون خبرات، امرأة لم يُسمح لها أبداً بأن تنمي عواطفها، بأن تقدر ما اسبغه الله عليها من نعم...»

«تعني أنك قد اعتقدت أني تصرفت معك كما كنت سأتصرف مع أي رجل آخر.» أجابته هيزل بحنق.

ضحك قليلاً قبل أن يجيبها: «ليس تماماً. لكنك قد جعلته واضحاً بأنك لم ترحبي بما حدث بيننا، ثم بعدها قمت أنا وأعطيتك ذلك الوعد اللعين بأني لن ألمسك أبداً طالما أني أعيش في منزلك. حصولي على هذا المكان كان ضرورياً. لكن بعد ذلك، عرفت بأن ليس هناك من سبيل لأن أبقى بقربك وأحافظ في الوقت نفسه على وعدي. وكنت خائفاً إذا نكثت بوعدي لك أن أكون بذلك أدمر آخر أمل لي في أن أجعلك ترينني كانسان وقع بيأس في حبك وليس كانسان رغب بك فقط وأراد إقامة علاقة معك.»

«إني آسفة.» اعتذرت هيزل وشعرت بنبرة الحزن في صوته. «لكنك كما تعرف، أني لا أملك خبرة كافية تجعلني أميز الفرق.»

«أعرف ذلك، يا حبي.»

عاد وجذبها نحوه وعانقها بحنان. كانت ما زالت تحت تأثير الصدمة مندهشة، مذهولة لا تكاد تستطيع التفكير، سيلاس يحبها. بدا ذلك مستحيلاً ولكنه ليس كذلك.

كانت ما زالت غير واثقة من نفسها، ومع ذلك، كانت تدرك بألم، عدم خبرتها.

«إذاً، أنت لا تمانع؟ إنني لست... أن ليس لدي... أن ليس لدي تلك المعرفة والخبرة اللتين يجب على أي امرأة في مثل سني أن تتمتع بهما؟» استطاعت أن تنهي سؤالها بعد تردد.

ساد صمت طويل قبل أن يأخذ سيلاس وجهها الصغير الجميل بين يديه ليجبرها على أن تنظر إليه مباشرة.

«أحبك.» قال لها بحزم: «هذا يعني أني أحب كل دقيقة، كل ثانية شكلت جزءاً ولو بسيطاً في بناء شخصيتك، أحبك كما أنت الآن، شخصك أنت. أعتقد أني أعلم تلك الطريقة البائسة، التي منعك بواسطتها والدك من اكتشاف ذاتك، وهذا ما أحب، وذلك ليس له أية علاقة بما تملكين أو تفتقري إلى.» جذبها سيلاس نحوه، قربها منه أكثر فأكثر. عندما عانقها، تعلق قلبها في شوق بسحر هذه اللحظات وقال: «لا يمكنك أن تدركي كم كان شوقي لأن أفعل هذا مرة ثانية.»

كانت الآن قد بدأت ترتعش بشكل آلي واستطاعت أن تقول: «كنت أعلم كم كنت أنا بشوق لذلك، كم أردتك أنا أن تفعل ذلك.»

كأنها أدخلت مفتاحاً سرياً في قفل مغلق، كأن كلماتها فجرت قوة سحرية بينهما، وكأن عدم خبرتها وسني التقشف العديدة التي عاشتها ما وُجدت قط. مشاعرها كلها استجابت له، لهمساته، لكل كلمة عشق نطق بها.

حضنها سيلاس بحنان، هامساً في أذنها بكلمات تطمئنها، تهدىء من روعها. أكّد لها أنه سوف يكون لهما الوقت الكافي ليكملا معاً هذه المرحلة الرائعة، أنه سيكون لهما كل وقت في العالم كله ليتشاركا الحياة ويتبادلا الحب.

إنه يريدها إلى الأبد، هذا ما قاله لها، ليس فقط لهذا اليوم، لهذه الليلة، بل للأبد ويأمل أنها تريده وترغب به بالقوة نفسها.

أجل إنها له، إنها تريده. أكدت له هيزل.

«بشكل كاف لأن تتزوجيني؟» سألها بجدية.

عندها فقط، عندما نظرت إليه رأت الشك، والرغبة في عينيه. عندها فقط علمت أنه في حبه لها كان في مثل ضعفها وهشاشتها.

«أجل.» أجابته بالجدية نفسها: «كفاية لأن أتزوجك ولأكثر من ذلك أيضاً.»

تزوجا قبل الميلاد، الاحتفال الهادىء الذي خططا له وأقاماه في كنيسة البلدة تحول بطريقة ما إلى احتفال عائلي واسع.

عائلة سيلاس كانت كلها موجودة ولسبب، حتى هيزل نفسها لم تعرف كنهه، دعت والدة جيمي وإخوته وأخواته وأولادهم أيضاً.

أخبرت كاتي بسعادة جميع من استمع إليها بأنها كانت السبب الأول لهذا الزواج وأنها قد عرفت منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناها على سيلاس بأنه كان الشخص المناسب لوالدتها.

قالت بحماس لهيزل بعد أن زفت لها خبر زفافهما: «فقط الأفضل، هو ما يلائمك، يا أمي، وسيلاس هو الأفضل.»

لم يكن باستطاعة هيزل أن تعارضها بذلك، فحتى الآن لا تكاد تصدق أنها وجدت مثل هذه السعادة، أنها بوركت بمثل هذا الحب.

احمرت وجنتاها بوضوح حين نظرت إلى زوجها وبادلها تلك النظرة، المليئة بالوعود، التي استطاعت أن تقرأها بوضوح في عينيه، آملة أن لا يكون أحد غيرها فهم تلك النظرة.

كان هناك العديد من الترتيبات عليهما القيام بها. عرض المنزل للإيجار والبحث عن مكان جديد يستطيعان فيه بدء حياتهما الجديدة. ثم إعداد كل الترتيبات الأخرى اللازمة، حتى أنهما ما كادا أن يتمتعا بلحظات انفراد جمعتهما معاً مؤخراً.

«أعتقد أن الوقت قد حان للذهاب.» همس سيلاس في أذنها وأضاف: «هل قلت لك مؤخراً كم أنا بشوق لأكون معك بمفردنا؟»

«ليس في الدقائق الأخيرة.» أجابت هيزل بدلال.

هددها قائلاً: «فقط انتظري. فقط انتظري حتى المساء...»

كانا واقفين معاً يتبادلان تلك النظرات العميقة حتى أن هيزل لم تشعر باقتراب كاتي منهما إلا بعد أن همست في أذنها: «الطريقة التي تتبادلان فيها النظرات أنتما الاثنان تجعلني أحمر خجلاً.»

«إننا على وشك الذهاب.» أجاب سيلاس ثم نظر بحنان إلى هيزل وأضاف: «هذا إذا كنت جاهزة للانطلاق، يا حبيبتي.»

«إني جاهزة.» أجابته هيزل بصوت أجش. في حين ضحكت كاتي بصوت عال ودفعت بهما خارج الباب، قائلة إنهما فعلياً الآن، يشعرانها بالاحراج.

تمت